الضيافة وآدابها

الطبعة الثانية

تأليف
الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك
قسم اللغة العربية - جامعة الملك سعود

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الضيافة وآدابها

الطبعة الثانية

تأليف
الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك
قسم اللغة العربية - جامعة الملك سعود

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com
www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الضيافة وآدابها

في الشعر العربي القديم

الدكتور
مرزوق بن صنيتان بن تنباك
قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

www.mtenback.com

٨١١/١٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع المكتبة من تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الضيافة في الشعر العربي القديم

التمهيـــد

ليس أظهر في شعر العرب من الكرم والفخر به وتأكيده في أقوالهم وأفعالهم وفي مناقبهم ومحامد أجوادهم، وهو – أي الكرم– اسم جامع لصفات الإنفاق المشروع والبذل للمال في سبل تعتز العرب بها، وتفاخر بفعلها، وتدّعي أن لها فيها القدح المعلى، فجاءت شعب الكرم عندهم متعددة ومتشابكة مع شؤون الحياة في الوقت نفسه. فإذا ذكر الكرم جاء معه إلى الخاطر ذكر الجود والسخاء والسماحة والفضل والضيافة، وكلها مما له علاقة بالعطاء وإذهاب المال فيما يعود على المرء بالذكر الحسن والثناء الجميل. وقد كان كل اسم من الأسماء أو الصفات السابقة ذا دلالة محددة عندهم وله معنى معروف في عاداتهم الاجتماعية وفي آثارهم الأدبية ومفاخر أعمالهم، يدل كل منها دلالة خاصة مميزة ذات مفهوم اجتماعي يعتمد على قوانين لايخل بها أحد من المجتمع إلا نال أقسى عقاب معنوي رادع. كما كان للكرم شمول واسع ومدلول فضفاض المعنى غير دقيق في تحديد خطوات الاستعمال، فالجود هو أعلى مراتب الفضل عندهم وهو أحد المرادفات لمعنى الكرم كما يأخذ في لغتهم معنى البذل والعطاء فجاء في قواميس اللغة قولهم: «جدت له بالمال جودا، وجاد الرجل بماله يجود جودا» وأجواد العرب مذكورون، فأجواد أهل الكوفة هم: عِكرمة بن رِبْعِي وأسماء بن خارجة، وعتّاب بن ورقاء الرياحي، وأجواد أهل البصرة: عبدالله بن أبي بكرة ويكنى أبا حاتم، وعمر بن

www.mtenback.com

عبدالله بن مَعْمَر التيمي، وطلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي، وهؤلاء أجود من أجواد أهل الكوفة. وأجواد أهل الحجاز: عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وعبيد الله بن العباس بن عبدالمطلب وهما أجود من أجواد أهل البصرة.

فهؤلاء الأجواد المشهورون. وأجواد الناس بعد ذلك كثير[1]. وقد أورد ابن عبدربه في العقد الفريد أسماء من انتهى إليهم الجود في الجاهلية والإسلام، وهم ثلاثة نفر في الجاهلية، حاتم بن عِبدالله الطائي، وهرم بن سنان المري ممدوح زهير ابن أبي سلمى وكعب بن مامه الإيادي. أما أهل الإسلام فهم عنده أحد عشر جوادا عاشوا كلهم في عصر واحد ويزعم ابن عبدربه أنه لم يكن قبلهم ولابعدهم[2] مثلهم. وهم من أهل الحجاز: عبيدالله بن العباس، وعبدالله بن جعفر وسعيد بن العاص، ومن أهل البصرة خمسة نفرهم هم عبدالله بن عامر بن كريز وعبيدالله بن أبي بكرة مولى رسول الله ﷺ، ومسلم بن زياد، وعبيدالله بن معمر القرشي ثم التيمي، وطلحة الطلحات وهو طلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي، ومن أهل الكوفة، عتاب بن ورقاء الرياحي، وأسامة بن خارجة الفزاري وعكرمة ابن ربعي الفياض[3]. ولكن الذين تكلموا عن الجود والأجواد وذكروهم وأثنوا عليهم لم يحددوا ضوابط للجود ولا أشار أحد منهم إلى الحدّ الذي يسمي الإنسان عنده جواداً ولكن يفهم أن الجود عند العرب هو البذل والعطاء وليس له حد ينتهي إليه بل يستمر متساميًا حتى الفناء للمال والهلاك للنفس بعد المال ولذا وصفوا كعب بن مامه بأنه أجود الأجواد

---

(١) انظر لسان العرب مادة «جود».

(٢) يفهم بالضرورة أن المؤلف يعني بقوله «ولابعدهم» أي حتى عصر المؤلف.

(٣) العقد الفريد، جـ١ ص ٢٩٣.

www.mtenback.com

وقد قال الشاعر فيه:[1]

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إن ضَنَّ البَخِيْلُ بِهَا والجُودُ بالنَّفْسِ أقصَى غَايَةِ الجُودِ

وجاء وصف السخاء مرادفًا للجود يوصف به الرجل والمرأة والمفرد والجمع فيقال سخي وجواد وكريم ويأتي وصف الفضل مثل ذلك فيقال، فَضُلَ يفضل وهو فاضل، ورجل مفضال كثير الفضل والفواضل الأيادي الجميلة.... قال الشاعر:[2]

سَأَبْغِيكِ مَالاً بالمدِيْنَةِ، إنَّنِي أرَي عَازِبَ الأمْوالِ قَلَّتْ فَضَائِلُه

وتأتي السماحة صفة أخرى من الصفات الطيبة متقدمة على وصف الجود والكرم، فيها شفافية النفس المعطاء التي تنطلق بالمد وتنشط للهبة وتجد لذة الحياة في الإنفاق، فسموا المرء الذي تغلبه سجيته إلى الإنفاق والبذل سمحًا وفعله سماحة ومن ذلك قول جرير الخطفى يمدح الوليد:

غَلَبَ المَسَامِيْحَ الوَلِيْدُ سَمَاحَةً وَكَفَى قُرَيْشَ المُعْضِلاَتِ وَسَادَهَا

ومنه قول الشاعر في وصف السماحة:

فِي فِتْيَةٍ بُسْطُ الأكُفِ مَسَامِحٍ عِنْدَ الفِضَالِ نَدِيْمُهُم لَمْ يُدْثِرِ

ومثله قول ابن مقبل:

وإنِّي لأَسْتَحْيِي وفي الحَقِ مَسْمَحٌ إذَا جَاءَ بَاغِي العُرْفِ أنْ أتَعَذَّرَا

هذه الصفات وغيرها عن الكرم وفروعه استعملها العرب وحددت اللغة معانى مفرداتها وتجلى مدلولها في أذهانهم وهي تعني الإنفاق للأموال وإعطاء الناس ماينتفعون به. وقد بلغ العرب في احترام صفات الكرم مبلغًا

---

(١) انظر لسان العرب مادة فضل.

(٢) كان كعب قد آثر رفيقه بشربة ماء وتحمل الظمأ حتى هلك ونجا رفيقه بسبب إيثاره إياه بحظه من الماء.

www.mtenback.com

عظيماً لأنها بذل تطوعي يقوم به الكريم رغبة في كسب الحمد والثناء والذكر الحسن، لكن ما يحاول هذا البحث تتبعه في الإرث العربي والمفهوم الثقافي هو شيء آخر غير ماتقدم ذكره من خصال الكرم: إنه القِرى والضيافة، لأنه الموضوع المميز في العقل العربي وهو أكثر صفات الكرم التصاقاً بحياة عرب الجزيرة وقد جعلوه مدار فخرهم ومنطلق شعرهم فذكروه كلما ذكروا الحياة وكلما ذكروا العادات الجيدة الموروثة والمكتسبة، وهو وإن كان ينطوي تحت الخصال التي ذكرت آنفاً فإنه يختلف عنها كل الاختلاف، فالضيافة وإقراء الضيف ألصق كل تلك الخلال وأقرب قبولاً لدى سكان الصحراء لما تتصف به حياة ساكنيها من شظف، فتضطرهم طبيعتها إلى الانتقال الطارئ والرحلة التي لايستطيع المسافر تحديد أمد لها ولايتوقع لها نهاية، فقد يخرج في طلب الضالة وهو لايظن أن ذلك يأخذ منه بعض اليوم لكن الضالة تبتعد كثيراً ويسير هو في طلبها وقد تكون ذهبت إلى غير الوجه الذي يريد، وطبيعة طلب الضالة وانتقالها واتساع فجاج الجزيرة أمامها تجعل إدراكها صعباً فيتبع أثارها في رحلة لايعرف نهايتها وقد لايكون أعدَّ لها زاداً ولا مؤنة فيحتاج أثناء رحلته للطعام وإلا هلك.

وقد يزمع المرء الرحلة إلى حي لايبعد مكانه أكثر من مسافة اليوم أو اليومين لكن الحي قد ينتقل من أرضه وينتجع أرضاً أخرى تفصلها المسافات البعيدة فيتبعه ويسير وراءه ليالي وأياماً حتى ينفد زاده وتنبت راحلته ويشفي على الهلاك إلا أن يجد في طريقه من يعينه على استمرار الرحلة، ويساعده على مواصلة المسير وطبيعة الجزيرة هي عامل من عوامل المهالك يتعرض المسافرون فيها للعوز والحاجة إلى قوت اليوم ومايقيم صلب الجائع لساعات معدودة. وقد تنوب الرحلة الطارئة الرجل منهم

www.mtenback.com

فلايجد مايأخذ معه من متاع وقد يكون الجوع هو سبب خروجه[1] وسفره وانتقاله فلايجد الزاد الذي يحمله معه أثناء رحلته فيضطر لطلب القِرى والبحث عن طعام السفر وإلا هلك. وقد وجد في العرب أفراد معدودون سموا بأزواد الركب[2] لأنهم يكفون المسافرين مؤنة السفر ويضمنون لهم معاش الطريق وزاد الرحلة، ولمشقة القيام بهذا العبء لم تذكر المصادر العربية من فعل ذلك إلا ثلاثة نفر أو أربعة -كما جاء في بعض الروايات- عرفوا بهذا الإسم واشتهر كل منهم بزاد الركب لما يقدم من إطعام للذين يصحبونه في رحلته. وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وزمعة[3] بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، وأبو أمية بن المغيرة[4] ابن عبدالله بن عمير بن مخزوم، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى ابن قصي[5]. وإذا كانت حاجة العرب للضيافة تبلغ هذا الحد فسيكون شأن الجواد المضياف عظيماً وأمره محموداً وذكره عطراً في الأذهان.

وقد جاءت لغة العرب فخمة مملوءة بمفردات الضيف والضيافة والقرى حشدت المعاني الكثيرة وفرعت الدلالة واتسعت أمام الضيف والضيافة فجاء في القاموس:[6] ضفت الرجل وتضيَّفته نزلت به ضيفاً وملت إليه وقيل

---

(١) انظر حديث أبي هريرة: أن رجلاً دخل على أهله فرأى مابهم من حاجة فخرج إلى البرية. «إكرام الضيف ص ٥٤».

(٢) المنمق في أخبار قريش، ص ٣٦٨.

(٣) وقد أصبح ابن زمعة، أبو عبيدة بن زمعة مشهوراً بالكرم والجود معروفاً بذلك، انظر عنه وعن قصص كرمه وجوده، معجم ما استعجم للبكري جـ٣ ص ٨٧٩.

(٤) ثمار القلوب، ص ١٠٣ ومجمع الأمثال جـ٢ ص ١٢٧.

(٥) ذكر ابن حبيب في المنمق أنهم: الأسود ومسافر وأبو أمية وزمعة. وفي مجمع الأمثال للميداني هم. مسافر وأبو أمية والأسود وفي ثمار القلوب للنيسابوري هم مسافر وزمعة وأبو أمية.

(٦) انظر لسان العرب مادة «ضيف».

www.mtenback.com

نزلت به وصرت له ضيفاً وضفته وتضيفته طلبت منه الضيافة ومن ذلك قول الفرزدق:

وَجَدتُ الثَّرَي فِينَا إذَا التَمِسَ الثَّرَى وَمَنْ هُـــو يَرْجُو فَضْلَهُ المُتَضَيِّفُ

وقال ابن بري: وشاهد ضفت الرجل قول القطامي:(١)

تَحَيَّزَ عَنِّي خَشْيَـــــةَ أنْ أضِيفَهَا كَمَا انْحَازَتْ الأفْعَى مَخَافَةَ ضَارِبِ

إذ إنها تنتحي عنه وتتأخر خوفاً أن ينزل عليها ضيفاً. وفي حديث عائشة: ضافها ضيف فأمرت له بملحفة صفراء، وفي حديث الهندي. تضيفت أبا هريرة سبعاً، وأضفته وضيفته: أنزلته عليك ضيفاً وأملته إليك وقريته لذلك قيل هو مضاف إلى كذا أي مال إليه، ويقال أضاف فلان فلاناً فهو يضيفه إضافة إذا ألجأه. وفي التنزيل: فأبوا أن يضيفوهما وأنشد ثعلب لأسماء بن خارجة الفزاري يصف الذئب:

رَأيْتُ حَقَـــــــاً أنْ أضِيفَهُ إذْ رَامَ سَلْمَـــــي واتَّقَى حَرَبِي

استعار له التضييف إنما يريد أنه أمّنه وحاطه قال شمر سمعت رجاءً بن سلمة الكوفي يقول: ضيفته إذا أطعمته، قال والتضييف الإطعام... وتضيفته سألته أن يضيفني وأتيته ضيفاً قال الأعشى:

تَضَيَّفْتُهُ يَوْمًا فَـــأكْرَمَ مَقْعَدِي وَأصْفَدَنِي عَلَـى الزَّمَانَةِ قَائِدا

وقال الفرزدق:

وَمِنَّا خَطِـــيْبٌ لايُعَابُ وقَائِلٌ وَمَنْ هُو يَرْجُو فَضْلَهُ المُتَضَيِّفُ

وضيفته أنزلته منزلة الأضياف... وفي التنزيل: هل أتاك حديث ضيف

(١) نص البيت في الديوان كالتالي:

فردت سلاماً كارهاً ثم أعرضت كما انحازت الأفعى مخافة ضارب

ص ٤٥.

www.mtenback.com

إبراهيم المكرمين، وفيه هؤلاء ضيفي فلاتفضحون. وقال الشاعر:

إذَا نَزَلَ الأَضْيَافُ كـــان عَذُورًا علي الحَيِّ حـتي تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُه

هذا بعض ماجاء من مادة الضيف في قاموس اللغة العربية وهي مادة تدل على السعة والانتشار والتشعب. وللسعة في استعمال العرب معناها ودلالتها عندهم عندما ترتبط بعادات وأعراف اجتماعية أصبحت علامات ذات قيم معنوية تحترم ويحافظ عليها وتلتزم العرب بآدابها وقوانين العلاقات الناشئة عنها، ولو لم يكن لها من رابط العلاقة إلا ماجاء في القرآن الكريم لكان ذلك كافياً فقد جاء فيه: ﴿**ونبئهم عن ضيف إبراهيم**﴾[1]، وقوله: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾.[2] وجاء على لسان لوط: ﴿**فاتقوا الله ولاتخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد**﴾[3]، وقال في موضع آخر من القرآن: ﴿**قال إن هؤلاء ضيفي فلاتفضحون**﴾[4]، وقد جاءت آيات القرآن التي أشارت إلى الضيف أو تحدثت عنه بوصف التوقير والإحترام له والإطعام والحماية، وهو ماكانت العرب تعرفه وتأخذ به وتلتزم بآدابه التزاماً مباشراً مؤكداً الإتفاق عندهم على وجوب إكرام الضيف النازل وهو في الآيات كلها التي جاءت في القرآن يوصف بأنه يأتي نكرة غريباً غير معروف عند من أتى إليهم، ففي سورة الكهف ﴿**فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذْتَ عليه أجرا**﴾.[5]

---

(١) الحجر الآية ٥١.

(٢) الذاريات الآية ٢٤.

(٣) هود الآية ٧٨.

(٤) الحجر الآية ٦٨.

(٥) الكهف الآية ٧٧.

www.mtenback.com

فموسى وصاحبه جاءا نكرتين غريبين على أهل القرية غير معروفين عندهم وفي سورة الحجر ﴿**ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنّا منكم وجلون**﴾[1]، فالقادمون إليه كانوا غرباء عنه مجهولين منه تبعث غرابتهم الخوف في نفسه والقلق فى وجدانه إلا أنه قام بواجب الضيافة كما تصفه الآية التاسعة والستون من سورة هود ﴿**قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**﴾[2]. فلم يتريث بقرى الضيف ولكنه عجل به كعادة العرب بتعجيل قرى الأضياف وإكرامهم بالطعام وأطايب الموجود حتى لو كانوا غرباء لايعرفونهم ﴿**فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنّا أرسلنا إلى قوم لوط**﴾[3].

وكذلك كان ضيوف لوط عليه السلام أتوه منكرين لايعرفهم فقدم لهم الحماية وحاول أن يقيهم السوء ببناته وتوسل إلى قومه ألا يخزوه في ضيفه ﴿**إن هؤلاء ضيفى فلاتفضحون واتقوا الله ولاتخزون قالوا أو لم ننهك عن العالمين. قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين**﴾[4]. كل ذلك القلق العظيم والخوف الحاد والتوسل الذي أظهره كان حرصاً على كرامة أضيافه قبل أن يخبروه بحقيقة أمرهم ويقولوا له القول الفصل ﴿**يالوط إنا رسل ربك...**﴾ الآية[5].

ففي كل ماتقدم من آيات القرآن وقصص الأولين يأتي الضيف طارئاً

---

(١) الحجر الآية ٥١-٥٢.

(٢) سورة هود الآية ٦٩.

(٣) سورة هود الآية ٧٠.

(٤) سورة الحجر الآية ٦٨-٧٠.

(٥) سورة هود الآية ٨١.

www.mtenback.com

على رب المنزل لايعرفه ولاتربطه به رابطة ولا قرابة ولانسب فيسرع في إطعامه محتفياً به متخفياً عنه متلطفاً كما في قوله تعالى في وصف نبيه إبراهيم **﴿فراغ إلى أهله﴾** وفي معنى ذلك يقول المفسرون إنه انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه لئلا يظهروا على مايريد[1]. وهي عادة عربية لازالت حتى يومنا هذا عند الناس إذ يحاول صاحب المنزل ألاّ يرى الضيف مايقدم له من قرى أو مايقوم به المضيف من تهيئة لطعام الضيف، فيسارع خفية إلى مالديه فيأتي به وكلما كان الطعام المعد للضيف سريعاً كان ذلك أظهر للكرم وألطف على الضيف الذي لايود أن يثقل كاهل مضيفه. بمايقدم له من طعام كما يدل على سرور المضيف وأنه غير متباطئ ولا مستثقل لقرى أضيافه ولا متكلف فيمايفعل، وقد جعل المفسرون الآيات التي ذكرت الضيف وإكرامه وتقدمت به إلى عهد إبراهيم حجة تدل على أن الكرم والضيافة عادة منذ القدم وأن الضيف الكريم صفة خاصة لضيف إبراهيم أخذاً من قوله تعالى: (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين).[2] لأن إبراهيم قام على خدمتهم والإعتناء بهم وهو نبي من الأنبياء، كما وصفوا إبراهيم بالكرم وأنه يكنى أبا الضيفان وكان لقصره أبواب بعدد الاتجاهات الأربعة يدخل الضيف من حيث أتى.[3] وانتقال مرجعية الكرم والضيافة العربية إلى أصول سامية بعيدة مغرقة في التاريخ مثل إبراهيم والأنبياء بعده موسى وشعيب دليل على بعد العهد الذي يمكن أن تعود إليه أدبيات الضيافة العربية ودليل على قيام العلاقة القوية الناشئة عنها. وهو أمر متفق مع وعي العادات الاجتماعية العربية في الجزيرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٧ ص ٤٥.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٤٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن. جـ١٠ ص ٣٥.

www.mtenback.com

التي وجدت منذ وجد العرب، فصار تكوينهم المعرفى لعادات الضيافة يملأ خيال شعرائهم ويجسم قصص أمجادهم.

ولايشك بعض الباحثين المحدثين في أن كثيراً من الأخبار قد تطرق إليها الخيال والمبالغة فيمايخص الكرم ومنها الضيافة ولكنها في زعمهم على مافيها من خيال ومبالغة تبقى صورة لأصالة الكرم في نفوسهم وشيوعه بينهم[1]. وستحاول هذه الدراسة تجريد البحث من الخيال المغرق والمبالغة التي لايستطيع العقل تصديقها بسهولة وسيغفل ذكرها ويطرح دلالتها في قصص القصاص وأحاديث الرواة وشعر الشعراء، وسيعمد إلى النص الشعري يستقرئه وينظر في جمله وكلماته ودلالتها الاجتماعية والمعنوية وحسبه أن يتحاور مع خيال الشعراء ومبالغاتهم في حدود المقبول من الأعراف الاجتماعية ذات الشمول والاتساع. والنص الشعرى في الجاهلية يعد قيمة معرفية تتفق مع طبيعة الفطرة المقبولة التي نما العمل بها سريعاً واتخذت رؤية شمولية لمعاني الكرم ونظمته تنظيماً ملزماً غيرّ الواقع الاجتماعى وآثر به تأثيراً مباشراً، فكانت الضيافة أهم قواعد ذلك التنظيم فارتضت العمل بها العرب كافة وقويت قوة تكاد تبلغ حدّ الإجبار على قبول مسلماتها الاجتماعية، ولايقوى على الحياة والاستمرار الأبدي إلا العادات الأصيلة التي تستمد أصولها من مكارم الأخلاق الفاضلة ذات القبول المرضي في التكوين الاجتماعي، ولاشك أن الضيافة من هذا النوع فعاشت عمقاً بعيداً في الذاكرة الجماعية والفردية، وعندما جاء المؤثر الأقوى والمحرك الأسمى وهو الإسلام كانت زوج النبي خديجة بنت خويلد تطمئنه ألا يخزيه الله وفيه من خصال المروءة والكرم مافيه فتقول له وهو يقص عليها قصته ومايأتيه «والله لايخزيك الله أبداً إنك لتصدق الحديث، وتصل

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص ٣١٠.

www.mtenback.com

الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتؤدي الأمانة[1]. تلك خصال تجمع المروءة الحقة والإنسانية الواعية للوظيفة الاجتماعية الفاضلة وهي خصال زادها العرب رسوخاً وقوة ورعتها أعرافهم وتقاليد حياتهم الخالدة وبعد الإسلام قوي التمسك بآداب الضيافة أيما قوة وأعطاها الإسلام دفعاً إيجابياً وهيأ لها مكاناً بارزاً في تعاليم الدين فنزل القرآن يذكر الضيف وحقوق الضيافة والقرى ويقص علينا قصص المرسلين الذين عرفوها ورعوها حق رعايتها.

ثم جاء الشق الثاني من تعاليم الإسلام وهو السنة فجعلت للضيافة بعداً دينياً وأيدت ما كانت العرب تؤمن به وتفعله من أجل المدح والفخر والذكر الحسن في الدنيا والتظاهر أمام الأنداد بالجود ومحامد الأخلاق. فتحول ذلك كله إلى عمل يرجى حمده في الدنيا وثوابه في الآخرة فزاد في النفوس توثيقاً وتقديراً. وقنّن الإسلام العادات والتقاليد التي تتعلق بآداب الضيافة، وحق الضيف وزمنه ومايجب له، سنراها فيما يأتي من نصوص الشعر وسنورد منها مايقوم به الدليل وتقوى به الحجة وأوله الحديث الشريف: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[2]. فقد ربط بين الإيمان الذي لايقبل عمل المرء بدونه وإكرام الضيف وأيد مكارم الأخلاق فقال فيما روى مجاهد عن السائب: «يا سائب انظر إلى الأخلاق الجميلة التي كنت تفخر بها في الجاهلية فاصنعها في الإسلام أقر الضيف».[3] وجاء فيما أوصى به بعض أصحابه «أقر الضيف». «ومن لم يكرم الضيف فليس من محمد ولا محمد منه» فأمره ﷺ متردد بين إقراء

---

(١) صحيح البخاري جـ١ ص.

(٢) كتاب إكرام الضيف ص ٢٢.

(٣) كتاب إكرام الضيف ص ٤٠.

www.mtenback.com

الضيف وإكرامه وهو أمر يقتضي الوجوب. وسأل قوم من العرب ابن عباس «قالوا إننا نقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونحج البيت ونصوم رمضان وإن المهاجرين يزعمون أنّا لسنا على شيء فكان جواب ابن عباس لهم «كذبوا من أقام الصلاة وآتى الزكاة وحج البيت وصام رمضان وقرى الضيف دخل الجنة»[1].

فالقوم لم يذكروا في عرضهم لما يفعلون من أركان الإسلام إقراء الضيف ولكن ابن عباس يعيد مازعموا أنهم يفعلونه ثم يزيد عليه إقراء الضيف. وهذه الزيادة من ابن عباس تتفق مع وظيفة التشريع في بداية الإسلام حين يأخذ المفسرون والوعاظ وأهل الفتيا بتقليل الناس الخصال المحببة للمسلم ومايرون أن عمله متمم للإسلام وموجب لدخول الجنة، وإضافة ابن عباس لإقراء الضيف وهو مالم يورده السائلون دليل على محاولة علماء صدر الأمة وعلى رأسهم الصحابة تأصيل هذا العرف الاجتماعي وتعميقه في نفوس الناس، وإضفاء الصبغة الإسلامية عليه، وإعطائه صورة الالتزام الديني. وقد حث الإسلام على الإنفاق في وجوه البر فجاء في بعض الآثار «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[2]. وكل ذلك يصب في مجرى الإنفاق الشامل ويحث على البذل. وقد حدد قرى الضيف زماناً ومكاناً فأصبح حق الضيافة ثلاثة أيام في الإسلام كما جاء في صحيح مسلم والبخاري «حق الضيافة ثلاث فما زاد فهو صدقة».[3] ثم صار المسجد في الإسلام مكاناً لإيواء الضيف وصار أهل المسجد ملزمين بضيف مسجدهم،

---

(١) كتاب إكرام الضيف ص ٤١.

(٢) المقتضب ص ٥٣.

(٣) إكرام الضيف ص ٥٣.

www.mtenback.com

وهو مايدل على شمولية الحق ووجوب قيام الجماعة به، بينما كان البيت هو المكان الذي يذهب إليه الأضياف لطلب القرى في الجاهلية.

وانتقلت مع العرب عادة القِرى إلى الأمصار التي حلوا فيها فكان القِرى عادة ملزمة ومحترمة عند العرب والعجم واهتموا به أيمًا اهتمام وبدأوا يفخرون بماضيهم كما ذكر الجاحظ في حديثه عن الضيافة قال: تنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي: نحن أقرى للضيف. قال: وكيف ذلك، قال لأن أحدنا ربما لايملك إلا البعير فإذا حلَّ به ضيف نحره له، فقال الأعجمي: فنحن أحسن مذهبًا في القِرى منكم، قال وماذاك. قال نحن نسمي الضيف «مهمان» ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا له»[1]. فعم الاهتمام بالضيف حتى في موطن الاستقرار وعند أهل القُرى. وجاء في تعليق بعض المفسرين على قوله تعالى: ﴿**حتى إذا أتيا أهل قرية...**﴾ الآية شر القُرى التي لاتضيف الضيف ولاتعرف لابن السبيل حقه[2]. وهو أمر لاخلاف فيه بين الباحثين إذ أكد الإسلام وتعاليمه أدب الضيافة وقرر حق الضيف ودعا إلى إكرامه، كما أثر عن أهل المدينة منذ أيام الرسول الأولى فيها أنهم على الرغم من فقرهم وحاجتهم هم وأولادهم للطعام وعدم وجود الكفاف منه، كانوا يؤثرون أضيافهم على أنفسهم وعلى أبنائهم وأهليهم ويحتسبون ذلك قربة وتعبدًا ويحرصون عليه[3]. حتى كان أهل البيت

---

(١) المحاسن والأضداد، ص ٥٦

ونقل النويري في كتابه صبح الأعشى: أن أول من سنّ للضيف صدر المجلس بهرام جور، أحد ملوك الفرس. صبح الأعشى جـ١ ص ٤٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، جـ٦ ص ٢٥.

(٣) كتاب إكرام الضيف ص ٥٢.

www.mtenback.com

منهم يطفئون السراج ويوهمون الضيف بمشاركته الأكل بينما هو في الحقيقة يأكل وحده حتى يشبع ويبيتون جياعاً. وقد وردت في هذا الشأن أحاديث كثيرة جمعها أبو إسحاق الحربى في كتابه إكرام الضيف وأوردها غيره من أهل الصحاح والمسانيد والسنن، ومنها حديث: إذا حلف أحدكم على يمين ورأى خيراً منها... «الحديث، وحديث» بل أنت أبرهم وأخيرهم» وسبب نزول الآية ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ ومناسبته متعلقة بإكرام الضيف والاهتمام به على شح وفقر وحاجة. ونقل أبو حيان التوحيدى في الإمتاع والمؤانسة قول مالك: كل بيت لايدخله الضيف لاتدخله الملائكة»[1] وكانوا يعيبون من يأكل وحده. وقالوا ما أكل ابن عمر وحده قط، وقالوا ما أكل الحسن وحده قط[2] وشاهد هذا من الشعر قول قيس بن عاصم المنقري:[3]

أيَا ابْنَةَ عَبْـــدالـــلّهِ وَابْنَةَ مَالِكِ وَيَا ابْنَةَ ذى البُرْدَيْنِ والفَرَسِ الوَرْدِي

إذَا مَا صَنَعْتِ الـــزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيْلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْـــدِي

---

(١) الامتاع والمؤانسة جـ٢، ص ٦٨.

(٢) البخلاء ص ١٦٢.

(٣) الكامل جـ٢، ص ٧٠٩.

www.mtenback.com

مآدب العرب

على الرغم من أن جزيرة العرب أرض غير ذات زرع وهي صحراء يغلب على حياة سكانها الترحل والانتقال وطبيعتها قاسية ومناخها صحراوى قليل الخصوبة فإن لأهلها آداباً في الطعام وأعرافاً وتقاليد يلتزمونها في كثير من أحوالهم بل لعل لهم من أشكال المآداب وضروب الدعوات ما ليس لغيرهم من الشعوب. وكأنهم بتعدد مناسبات الإطعام واهتبال الفرصة لتقديم الطعام يعوضون قسوة الطبيعة، وظواهر الحرمان، وشظف الصحراء، فيهتبلون مناسبات للجود والاحسان ويقيمون الأفراح العامة ويتفننون في إتقان الأطعمة ويدعون إليها. الأمر الذي لم يكن متوقعاً من أناس يعيشون حياة غير مستقرة لاتساعد على التأني في صنع المناسبات وفي أنواع المأكولات والأطعمة. وقد أحصت كتب التراث أكثر من ست عشرة مناسبة تقام فيها الاحتفالات ويطعم فيها الطعام. ومنها: الوليمة وهي الطعام الذي يصنع عند الزواج واقتران الرجل بالمرأة فاعتنوا به وبالغوا في تقديم الطعام للناس في هذه المناسبة، وقد كان يدعى لها الإشراف والوجهاء وأهل الشأن والمكانة الاجتماعية الخاصة، ولهذا نسب الأثر المشهور شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها من لايأتيها ويمنع عنها من يأتيها». وقد أمر الرسول عبدالرحمن بن عوف أن يولم ولو بشاة.[1] ومنها المأدبة وهي إعداد الطعام للناس كافة وقد فخروا بذلك وأشادوا بالآدب الذى لايخص بدعوته أحداً من الناس دون آخر فقالوا:

---

(١) البخلاء ص ٢١٣.

www.mtenback.com

نَحْنُ فـي المَشْتَاةِ نَدْعُـو الجَفَلَى لا تَرَى الأَدِبَ فِينَـــــا يُنْتَقِرْ

وفى الحديث الشريف «القرآن مأدبة الله»[1]. ومن المآدب عندهم الدعوة وهى تقديم الطعام للحي والمقيمين فيه بلا استثناء وبدون مناسبة محددة. وقد جعلوا للخطبة أو عقد القرآن طعاماً يصنع ويدعى إليه، وكانت عندهم الخرس وهو الطعام الذي يصنع للنفساء من النساء خاصة، ثم العقيقة وهي الطعام والدعوة إليه عندما يولد الولد، ثم الإعذار أو مأدبة الختان كما يسمى في العصر الحاضر وذلك أن الختان يتأخر حتى يبلغ الفتى الخاسمة عشرة أو تزيد، وعندهم طعام الشندخ وهو بمناسبة الزواج وإعلانه ومايبتهج به رب الضالة عند وجودها. والنقيعة وهي مايصنع للقدوم من السفر ويدعى إليه وكذلك الاحتفال بالبيت الجديد أو الانتقال إليه ويسمون ذلك الوكيرة. وفرقوا بين حال وحال في تقديم الطعام وتسميته فجعلوا التحفة هو الطعام الذي يصنعونه للزائر. وأما الأضياف فطعامهم يسمى القِرِي وهو مانورد الحديث المسترسل عن أطعمة العرب من أجله. وصنعوا الطعام عند الوفاة وسموا ذلك وضيمة.[2] ويهمنا من ذكر تلك المآدب والأطعمة اهتمام العرب بالضيافة والضيف، وأن القرى إحدى مآدبهم ومناسبات حياتهم التي يفخرون بها، فتطور لدى بعضهم قبيل البعثة شعور عميق بمعاناة الضيف فحبسوا الحبس على إطعامه، وجعل الأجواد منهم بعض مالهم وقفاً لأعمال الخير الدائمة ومنها قِرى الأضياف فذكر ذلك من مناقبهم، فقد جعل عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم قبته ملاذاً للخائفين والجائعين فلايدخلها خائف إلا أمن الخوف

---

(١) البخلاء ص ٢١٣.

(٢) ينظر المفصل جـ٤ ص ٦٨٥، جـ٥، ص ١٨.

وكذلك معاجم اللغة عن كل مادة وردت في هذه المناسبات وأسمائها.

www.mtenback.com

ولاجائع إلا أطعم[1].

ووضع ربيعة اليشكري نخله وحديقته لابن السبيل وكل مقطوع، فلما كانت حجة الوداع وضع الرسول كل مكرمة في الجاهلية إلا السدانة والسقاية فقام ابن ربيعة بن الأسود فقال: يارسول الله إن أبى كان وقف نخلاً على أبناء السبيل أفهي مكرمة له فأمضها؟ فأمره النبى بامضائها فسمي مورث الأضياف وفيه يقول الشاعر:

هَلُمَّ إلـــى حُكَّامِ بَكْرِ بـــن وَائِلٍ وَلاَتَكُ مـــــثلَ الجَاهِلِ المُتَرَدِّدِ

أو الـــيَشْكُرِيْنَ الـــكَرَيْم فِعَالُهُم بنـى مُوْرِثِ الأَضْيَافِ من آلِ أَسْوَدِ

وقد تمنى معاوية بن أبي سفيان أن تكون له مكرمة ربيعة بن الأسود مكان خلافته[2].

ولاشك أن هذه المواقف المشرفة في تاريخ العرب وفى عاداتهم تصلح دليلاً لما وصل إليه الشعور العام من اهتمام بالضيافة ومساعدة الغريب وابن السبيل ومن تنقطع به الطريق ويشق عليه السفر. ولم يعد مستغرباً أن يكون للضيف مساحة كبيرة من شعر الشعراء وفخر الفاخرين بمحامد أجوادهم وأعمال الفضيلة عندهم، وقد نال عادة الضيافة وإكرام الضيف شيء كثير من الاهتمام الجماعي وقلّ ما عرض شاعر من العرب للمدح أو للذم إلا وجعل من شعره نصيباً طيباً للمدح بكرم العربي لضيفه أو هجائه بإهماله.

---

(١) المحبر ص ٢٤١.

(٢) المحبر ص ١٤١، انظر المفصل عنها أيضاً جـ٥ ص ٧٥.

www.mtenback.com

حتمية الضيافة

رسخ قرى الضيف في العقل العربي وتأصل حتى صار حقاً لازماً لايلغيه أو يقلل منه حال من الأحوال أو ظرف من الظروف الطارئة في حياة العرب، وما أكثر مايحدث من ظروف ومايطرأ من طوارئ الدهر، وحتى الحرب وهي أقسى مايقع بينهم لاتمنع أحد المتحاربين من تقديم القرى للمحارب الآخر إذا نزل عليه، فقد ذكر من أخبار الجاهلية أن أبا كرب تبع غزا الأوس والخزرج في يثرب عندما أنفوا طاعته وعصوا أمره فكانوا يحاربونه في النهار فإذا جن الليل وتوقفت الحرب أخرج الأوس والخزرج طعام الضيافة لجيشه وقدموا لهم القِري الذى يرونه واجباً عليهم حتى في مثل تلك الحال من الحرب والقتال[1].

ينقسم سكان الجزيرة إلى أهل مدر وأهل وبر، ولأهل المدر الحصون الحصينة والقلاع والأبواب المرتجة التي تمنع الطارق من الدخول إليها وطلب الطعام من أهلها في الليل، ففطنوا إلى ذلك وأثر عن بعض سكان الحصون والقُرى أن فيهم من كانوا لايغلقون أبواب بيوتهم في الليل خشية أن يطرقهم ضيف وهم نيام فلايجد أحداً يقريه وقد ينام خارج البيت طاوياً[2]. وقد استمرت هذه العادة حتى عهد قريب في قُرى الحجاز وفي قُرى المدينة المنورة فيما أعلم[3].

---

(١) العقد الفريد جـ٣ ص ٣٣٤.

(٢) مغازي الواقدي جـ١ ص ٣٩١.

(٣) كان أهل العوالي خاصة وقباء وقُرى المدينة المحيطة بها يجعلون غرفة خارج المنزل متصلة بسوره فيها يكون الطعام وأغلبه التمر ومايحتاج إليه الضيف كالقهوة والماء فإذا نزل في الليل=

www.mtenback.com

وجاء في أمثالهم: أقرى من زاد الركب، وأقرى من حاسي الذهب، وأقرى من مطاعيم الريح، وأقرى من آكل الخبز وأقرى من أرماق المقوين[1].

أما أهل الوبر أو البادية المنتقلون في فجاج الصحراء وأنحاء الجزيرة فكان شأنهم عجيباً في إقراء الضيف والاحتشاد له والاهتمام بأمره مع مايعتري الناس من عوز وفاقة. وهم ينتشرون في الصحراء ويذهبون في مجاهلها كل مذهب يطلبون الخصب ويتبعون الغيث ويرتادون مواقع الحيا أنىً كان. والمسافر في الصحراء لايستطيع الإهتداء إليهم إلا بتتبع الأثر أو بتقصي

= لايحتاج إلى إيقاظ أهل المنزل، فيذهب إلى هذه الغرفة فيجد القرى، فينال ماشاء، وينام بعد ذلك أو يخرج في سبيله. وقد سجل الشيخ جهز بن شرار شيخ ميمون من بني عبدالله شعراً عامياً في القرن الماضي يذكر فيه فضل أهل العوالي وإكرامهم الضيف وأنهم لايغلقون الباب دونه فيقول:

ياليتني سيرت يم العوالي اللى ترحب بالمسايير أهلها
شرّابة للبن لو قيل غالي ماسكوا البيبان عن من دهلها

معنى الأبيات:

يقول ليته نزل ضيفاً على أهل العالية في المدينة المنورة حيث لايجد باباً مغلقاً دون الضيف. وسبب شعره أنه قدم قرية من قرى الجزيرة وكان يريد القهوة والقرى فوجد الأبواب مغلقة واستحى أن يقرع الأبواب طلباً للطعام عندئذ تذكر عادة أهل العوالي في المدينة المنورة ومايعرف عنهم من إكرام الضيف، وأنهم لايضطرونه لطلب القرى وقرع الأبواب ولكنها تبقى مفتوحة وطعام الضيف معداً جاهزاً حتى في الليل والناس نيام. والقصيدة طويلة يعرفها المهتمون في الشعر العامي وفيها يذكر اسم القرية التي عناها بشعره وقارن بينها وبين عالية المدينة المنورة.

وفي الحناكية كان الشيخ حمد بن سميحة لايغلق باب منزله ويبقى المكان الخاص بالضيوف مفتوحاً لطارق الليل.

وفي الأتمة (اليتمة) كان الشيخ سعد أبو ربعه لايغلق بيته في الليل خوفاً من أن ينزل ضيف فلايجد القرى.

وكان راشد بن تنباك يحمي غراب والدونكين إلا أنه يستثني المسافر والضيف فلايحمي عليهما.

(١) مجمع الأمثال، جـ ٢، ص ١٢٧.

www.mtenback.com

الخبر، ولكنهم لم يعدموا سبيلاً يقتفي بها آثار التازحين. فكانت النار إحدى إمارات الهداية لمن غاب منهم أو ضل عنهم، فهي توقد للاصطلاء والطبخ وهداية التائهين، كما جاء في مأثورهم «أشهر من نار على علم» فكانت وسيلة لم يلبث العرب أن جعلوا إيقادها تعبيراً عن كرمهم وحبهم في صنع الجميل فصنفوا النيران)[1] وأضافوها إلى ماتجلب وماتعبر عنه في حياتهم وماتوقد من أجله. ومنها نار **القِرى** وهي نار يوقدها الجواد في الليل وخاصة في ليالي الشتاء وغيرها ليستدل بها الأضياف[2] وقيل هى مذكورة على الحقيقة لا على المثل وهي من أعظم مفاخر العرب وأشرف مآثرها وهي النار التي كانت ترفع للسفر ولمن يلتمس القرى فكلما كان موضعها أرفع كانت أفخر، والأشعار فيها كثيرة ومن أحسنها قول الأعشى:[3]

لَعَمْري لقد لاَحَتْ عُيُونٌ كَثِيْرَةٌ إلى ضَوْءِ نَارٍ في اليَفَاع تُحَرَّقُ
فَشُبَّتْ لِمقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِها وَبَاتَ علي النَّارِ النَّدَى والمحَلَّقُ

وقال الجاحظ وأحسن من هذا الشعر في هذا المعنى ومن كل شعر في معناه قول الحطيئة:[4]

متَى تَأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِه تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوْقِدِ

ومن أحسن ماقيل في هذه النار قول الشاعر:[5]

لَهُ نَارٌ تُشَبُّ بكُلِ وادٍ إذَا النِّيْرَانُ أَلْبِسَتْ القِنَاعَا

---

(١) حسب الغرض الذي توقد من أجله فمنها نار الحرب ونار القرى... إلخ.

(٢) نشوة الطرب جـ٢ ص ٨٠٠.

(٣) ثمار القلوب ص ٥٧٥.

(٤) ثمار القلوب ص ٥٧٦.

(٥) نهاية الأرب جـ١، ص ١١٣.

www.mtenback.com

وَلَمْ يَكُ أَكْثَرَ الـــــــفِتْيَانِ مَالاً ولكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُم ذِرَاعـــــاً

وما أكرم وأشرف من قال وهو يأمر غلامه بالإيقاد والاستجلاب للأضياف:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لـــــــيْلٌ قَرٌّ والـــــــرِّيْحُ مَاتَرَاهُ رِيْحٌ صِرٌّ

عَسَي يَرَى نَارَكَ مـــــــن يَمُرُّ إِنْ جَلَـــــــبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ

وينقل فيها قول الشاعر الآخر -أي في نار القِرى- وهو إبراهيم بن هرمة:

إِذَا ضَلَّ عَنْهُمْ ضَيْفُهُم رَفَعُوا لَهُ من النَّارِ فِي الظَّلْمَاءِ أَلْوِيَةً حُمْرَا

وتذهب النار في تقاليد العرب إلى بعد سحيق ومذاهب شتى حتى أصبح احتكارها من قبل أهل السلطان والقوة علامة من علامات السيادة وصار حقًا شخصياً لايفعله الآخرون إلا بإذن صاحب الامتياز فيقول مهلهل أخو كليب بن ربيعة في رثاء أخيه:(١)

نُبِّئْتُ أَنَّ الـــــــنَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ وَاسْتُبَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المَجْلِسُ

وَتَكَلَّمُوا فـــــــي أَمْرِ كُلِّ عَظِيْمَةٍ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبِسُوا

وكان كليب وائل لاتوقد مع ناره للضيفان نار في أحمائه وفيما يقرب من منازله وأوطانه.

وعلى الرغم من إلحاح ماسبق من النصوص عن نار القِرى وأن الكريم المضياف يشعلها الليل كله أو بعضه فإن استقراء التاريخ وغربلة الواقع الذي عاشه أهل الجزيرة والنظر في شعرهم وعاداتهم وماخلفوه من إرث أدبي كثير يقنعنا بغير ذلك وهو أن النار ما كانت في بداية الأمر استجلاباً

---

(١) الحماسة جـ٢، ص ٩٢٨.

www.mtenback.com

للضيف إلى حيث مرابع الحي ومنازل الأجواد وسعة أهل الفضل. لكنها كانت توقد لمن كان من أهل الحي غائباً في سفر أو ذاهباً في رعي أو طالباً لصيد. فإذا انتقل الحي إلى مربع جديد ومكان آخر لايجد هؤلاء دلالة غير النار التي توقد في الليل للغائبين فترفع على النشز ويبالغ في إشعالها كلما كان الغائبون عن الحي لم يعودوا إليه لعلهم يشاهدونها فيؤمونها ويعرفون أماكن نزول القبيلة. والشاهد على مانذهب إليه قول الشاعر:(١)

وَنَارٍ قَدْ رَفَعْتُ لِغَيْرِ خَيْرٍ ... رَجَاءَ أَنْ تَأَوَّبَنِي الرِّعَاء

تَأَوَّبَنِي طَوِيلُ الشَّخْصِ مِنْهُمْ ... يَجُرُّ ثِقَالَهُ يَرْجُو العَشَاء

فَكَانَ عَشَاءَهُ عندى خَزِيرٌ ... بِتَمْرٍ جَثِيثَةٍ فِيهِ نَوَاء

والنار تجلب كل من رآها ومنهم اللص السارق والعدو الغازي والوتور الثائر وغيرهم، ولا أظن أحداً من العرب في فجاج الصحراء يود أن يهتدي إليه هؤلاء أو يعرفوا مكانه. ولكن اضطروا لإيقادها لهداية من ضل منهم، فكانت سبباً في جلب الضيف والمسافر الذي يضرب في مفاوز الجزيرة الواسعة ويخبط الليل بحثاً عن مأوى أو طلباً لوجبة طعام فتحقق له هدفاً لم يرده الموقدون لها فنسي الغرض الأول من إيقادها وأصبح الفاخرون منهم يذكرونها على أنها توقد للضيف وترفع له، وسنجد الشعراء يدّعون ذلك ويزعمون أنه إذا رأى النار غريب مسافر وقدم إليها طالباً القرى فإنهم من أجله أشعلوا النار رغبة في رؤيته وإقرائه والتفضل عليه. ولايستبعد بعد أن أصبحت نار القرى موضع فخر أن يوجد من يشعلها ويرفعها في بعض لحظات الإشراق النفسي وثورة الأريحية في وجدانه للأضياف وهو يعرف أنها ستجلب الضيف وكل من رآها واستطاع الوصول إليها.

---

(١) البخلاء ص ٢٢٩.

www.mtenback.com

وليست النار وحدها الدليل الذي يستدل به الضالون في مفاوز الجزيرة، فالنار لاتوقد الليل كله ولانصفه إلا فيما قلّ وندر، وطبيعة الحياة هو أن إيقاد النار يستمر بعض الليل فإذا هدأت الحركة واستسلم الناس لسلطان النوم، بعد جهد مملوء بالكد والتعب والتقلب في شؤون الحياة كان الكلب هو الحارس الذي لاينام يسهر يحوط الحي ويحرس الماشية ويعلو نباحه كلما جن الليل غير هاديء. فيهتدى به الأضياف والضلال. وقد سماه العرب داعي الضمير لما يجلب من الأضياف عليهم بنباحه وقد ذكر صاحب المستطرف أنهم كانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حول الحي وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح فتهتدي الضلال ويأتي الأضياف على نباحها.[1] وهذا القول هو أقرب إلى الحقيقة أو هو الحقيقة ذاتها فالنار والكلاب ماكانت في بداية الأمر لهداية الضيف وإنما كانت لهداية الضال من أهل الحي. وحرصهم على عودة أحد أفراد الحي هو الذي جعلهم إذا غلبهم النوم فلم يستمروا على إيقاد النار ربطوا الكلاب إلى العمد بعيداً عن الحي حتى تستوحش وتنبح. وتلك عادة من عادات العرب حتى في العهد الماضي القريب كانوا يفعلون هذا الفعل إذا انتقلوا من مكان إلى آخر ولاسيما إذا كان لهم غائب يتوقعون قدومه على آثارهم. لكن الضيف سيجد طريقه إلى الحي مع الغائبين ولن يستطيع أحد منعه. وقد اختلط لهذا السبب ذكر النار ونباح الكلب في إستجلاب الضيف لأنه غير المطلوب ولا المستجلب. والضيف من جانبه كان يحرص على سماع النباح فيحاول إذا اقترب من منطقة مأهولة تقليد صوت الكلب والنباح كما ينبح فتجيبه الكلاب إن سمعت صوته فيعرف

---

(١) المستطرف جـ١ ص ٣٧١.

www.mtenback.com

مكان الحي ومرابعه. وقد وصف الشعراء هذا الموقف في مواضع كثيرة ومناسبات متعددة في شعرهم الذي وصل إلينا مثل قول أحدهم:(١)

وَمُسْتَنْبِحٍ قَالَ الصَّدَى مِثْلَ قَوْلِهِ ... حَضَأْتُ لَهُ نَارًا لهـا حَطَبٌ جَزْلُ
وَقُمْتُ إليـه مُسْرِعًا فَغَنِمْتُهُ ... مَخَافَةَ قَومٍ أنْ يَفُوزُوا بـه قَبْلُ
فَأَوْسَعَنِي حَمْدًا وَأَوْسَعْتُهُ قِرًى ... وَأَرْخِصْ بِحَمْدٍ كان كَاسِبَهُ الأَكَلُ

ويفخر أرطأة بن سهية فيقول:(٢)

وَإِنِّي لَقَوَّامٌ إلى الضَّيْفِ مَوْهِنًا ... إِذَا أَغْدَقَ السِّتْرَ البِخَيْلُ المُوَاكِلُ
دَعَا فَأَجَابَتْهُ كِلاَبٌ كَثِيْرَةٌ ... عَلَيَّ ثِقَةً مِنِّي بِمَا أَنَا فَاعِلُ
وَمَادُونَ ضَيْفِي مِن تِلادٍ تَحُوزُه ... يَدُ الضَّيْفِ إلا أَنْ تُصَانَ الحَلاَئِلُ

ومثله قول إبراهيم بن هرمة عندما فخر بنباح كلبه وفرحته بضيفه:(٣)

وَمُسْتَنْبِحٍ نَبَّهْتُ كَلْبِي لِصَوْتِهِ ... وَقُلْتُ لَهُ قُمْ فِي اليَفَاعِ فَجَاوِبِ
فَجَاءَ خَفِيُّ الصَّوْتِ قد مَسَّهُ الضَّوَى ... بِضَرْبَةِ مَسْنُونِ الغِرَارَيْنِ قَاضِبِ
فَرَحَّبْتُ وَاسْتَبْشَرْتُ حتى بَسَطْتُهُ ... وَتِلْكَ التي أَلْقَى بِهَا كلَّ آئِبِ

وكان طارق الليل أكثر الأضياف مؤنة وأشدهم على مضيفه عناء إذ لايتوفر شيء يقرى به ولايسهل تقديم الطعام إلا أن يوقظ أهل البيت حتى يكمل واجب الضيافة، وهو أمر لايخفي مافيه من المشقة حتى لو كان الطعام موجوداً والقِرى متوفراً، فما بالك إذا كان الطارق في هزيع الليل، قد ساقه حظه التعس إلى بيت لايجد أهله الطعام لأنفسهم فضلاً عن زيادة

---

(١) الكرماء ص ٢٣ الحماسة ص ١٥٦٩.
(٢) الحيوان جـ ١ ص ٣٦٧.
(٣) الحيوان جـ ١ ص ٣٦٧.

www.mtenback.com

يقتات بها الضيفان. إن العبء الذي يلقيه هذا الطارق عظيم، والقيام بواجب الضيافة شاق، وقد يدفع الأمر صاحب المنزل إلى مغامرة غير مأمونة العواقب، وفيها من الحرج مالايخفى. فقد نزل على حاتم الطائي ضيف في هجعة الليل ولم يكن ثمة قِرى فنحر حاتم ناقة الضيف له وعشّاه منها حتى لايقع في عار الحرمان لضيفه وعار البخل على نفسه، ثم أرضاه بعد ذلك بعوض مجز من الإبل.[1] وحدث الشيء نفسه للراعي النميري وسجل معاناته ومالقيه بقصيدة من أجمل ماقيل في عسر الضيافة ومشاقها سترد فيما يأتي من نصوص الشعر[2].

ويأتي التعبير عند الحطيئة في موقف شعري رائع فيقص حرجاً عظيماً وقع فيه أهل بيت من العرب وهم في صحراء مقفرة أوغلوا فيها حتى لايروا أحداً من الناس ولا يجتمعوا إلى أحد من البشر، وهم عراة جوّع فطرقهم الضيف الطالب للقِرى فلم يمنعهم ماهم فيه من بؤس عن حقوق الضيافة. وعلى الرغم من أن الحطيئة[3] يتخيل صورة قصصية لأبطال مشهده الشعري إلا أن قصته تعد واقعية إذ تحكي حال العرب وتدلل على مكانة الضيف والتزامهم بواجب الضيافة في أي ظرف من ظروف الحياة. وليست الأيام كلها بتلك القسوة الحادة التي تصورها الأبيات الكثيرة، والفخر المطرد الذي يصف تجاوز العربي لكل العوائق والظروف وتفتيقه للحيل حتى ينجح بقراء الضيف. إنما توجد ظروف الخصب والنماء والنعمة التي تمكن الرجل الجواد من إكرام الضيف وإعطائه من سعة وترفيهه بأنواع الطعام. فنجد مثلاً أنواعاً كثيرة وصنوفاً شتى تقدم للضيف

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٥٧.

(٢) ديوان الراعي النميري ص ٥.

(٣) سترد القصيد في مكانها من البحث.

www.mtenback.com

قبل الوجبة الأساسية. منها العجيل أو العجل وهو طعام يقدم إلى الضيف حال نزوله ويكون من السويق والتمر في أغلب الأحيان، ومنها القفي وهو اللبن الذي يعطى للضيف بعد الطعام ومنها القفارة وهو المرق الذي يقدم للضيف قبيل الوجبة الأساسية.(١) ولهنة الضيف وهو طعام خفيف يقدم للضيف يتلهى به ويرد جوعه حتى يهيأ الطعام، ومن أمثالهم في هذا المعنى كسرة بملح إلى أن يدرك الشواء.(٢) وقد مدحوا بتعجيل القِرى للضيف وذموا بإبطائه إذ الإبطاء دليل على تعسر معنى الكرم في نفوسهم وإبطاء بحق الضيف، ولذا هجا الشعراء من يؤخر القِرى في مثل قولهم:

أَسَأْتُمْ وَأَبْطَأْتُمْ على الضَّيْفِ بِالقِرَى وَخَيْرُ القِرَى لِلنَّازِلِينَ المُعَجَّلُ

وقيل في الأثر: العجلة من الشيطان إلا في خمس. منهن، إطعام الضيف إذا حل.(٣)

وقد سمي حي من أحياء العرب ببني العجلان لأنهم كانوا يعجلون بقرى الضيف ويسرعون إليه.(٤) فكانت مفخرة لهم وانتسبوا إلى العجلان لفضل عمله وشهرته بما يحمده الناس له ويثنون به عليه.

---

(١) المفصل جـ٤ ص ٦٨٦.

(٢) وثمار القلوب ص ٦٠٨.

(٣) الامتاع والمؤانسة جـ٢ ص ٦٨.

(٤) العمدة جـ١ ص ٥٢.

www.mtenback.com

هداية الضيف

(أ) نار القِرَى :

تمتد الجزيرة امتداد الأفق وتتسع فجاجها أمام السالكين إتساع فضاء سمائها فتصبح الهداية فيها أحد ضروب المستحيل. وأبعد مايرى المسافر فيها هو ضوء النار في ليالي الشتاء الدامسة حين يوقدها الحي النازلون عند إطباق الليل على فسحة الكون من حولهم، للاصطلاء عليها والاجتماع حولها والتعلل بضوئها قبل أن ينهض كل منهم إلى فراشه، فيمتد شعاع النار، ويرتفع سناها في كبد السماء فلايحجبها حاجز عن الناظرين مهما كان البعد، وقد صار لضوء النار شأن أي شأن في جلب الضيف الذي يضرب في متاهات الصحراء ومفازات الأرض، فلايكاد يرى النار حتى يتجه إليها ويطلبها ليقطع وحشة الليل ويرتاح بعض الوقت من وعثاء السفر وينال وجبة طعام قد تكون هي مطلبه الأول.

وما سوف يرد من الشعر الذي يصف نار القرى ومانجلب من الأضياف هو نتيجة مفروضة تقبلها الشاعر وحوّلها إلى فخر له، ومباهاة للآخرين، وجعلها إحدى علامات الكرم في جبلته فيرتفع فوق أقرانه ويشهر في حيه، ويؤكد في كل كلمة يقولها أنه أوقد النار عمداً وأشعلها قصداً لتجلب الضيف إليه فيراها ويستبشر بها ويستعد صاحب النار لإكرامه ويثبت لأقرانه أنه جواد مضياف لايطفئ النار خشية مغرم الضيافة، ولكنه يشعلها لمن أتى طارقًا ويسرع إلى القرى وينهض بحقوق القادمين، ومادام ذلك يحتاج إلى

www.mtenback.com

تتبع الشعر حتى يكون وثيقة الاعتماد وحجة المدعي فإن الاستشهاد به يجب أن يكون أولاً قبل عرض فلسفة القرى وعلاقة النار بجلب الضيف وآداب العرب فيما يصر على ذكره الشعراء حتى يتضح إذا كان قوله مطابقاً للواقع أو أنه يدعي هذا الإدعاء ويوقد النار لغير القرى.

إن تمثل الحياة لسكان الجزيرة التي يغلب عليها طابع التقشف والعوز يقرّب إلى الأذهان الصورة المشرقة المطلوبة ويجعلها قيمة فوق أكثر القيم ويجلو الجانب الإيجابي منها فيصير ترويحاً للنفس وتهيئة للإقدام على مجازفة كبرى عندما تكون الرغبة في صراع الطبيعة قوية في نفس العربي الجواد لاينهض بها مايملك من حطام الدنيا ولايمكن أن ينهض بها وحده ولكنه مع قلة ذات اليد يقدم ولايتردد ويرفع النار وإن قلّ مالديه وبخل عليه من حوله. ولابد أن تكون الكثرة التي يدعيها الشعراء هي في الحقيقة كثرة نسبية إلا أنه لامراء أنها موجودة على كل حال كما ذكروا. وهذا أول شاهد يقول:(١)

لَهُ نَارٌ تَشَبُّ بِكُلِّ رِيحٍ ... إِذَا الظَّلْمَاءُ جَلَّلَتْ الْقِيفَاعَا

وَمَا إِنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ سَوَامًا ... وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبُهُمْ ذِرَاعَا

فالنار تكلف موقدها بذل المال وإن كان قليل الثروة، وموقد النار مقدم على تبعات الإيقاد فيتحمل أعباء ماتأتي به وهو فخور بأنها تجلب الأضياف عندما يضعها في النشز العالي من الأرض، وتسعرها الريح العاصف التي تزيد لهيبها إشعاعاً وارتفاعاً حتى يراها كل ناظر في أرجاء الأرض المحيطة به وبمن حوله:(٢)

---

(١) البخلاء ص ٢٤٣.

(٢) البخلاء ص ٢٤٣.

www.mtenback.com

وَنَارٍ كَسَحْرِ الـعَوْدِ يَرْفَعُ ضَوْءَهَا مع اللَّيْلِ هَبَّاتُ الرِّيَاحِ الصَّوَارِدِ

إذن النار الموقدة علامة هداية للضيف ولغيره والموقد لها حريص على أن يرى الأضياف يؤمونها ولايخشى أن يرفعها عالياً حتى يحصل له الشرف الذي يطمح إليه ويطمع أن يوصف به. وكل رجل كريم جواد يريد الذكر الحسن والثناء العطر. وقد بالغت العرب بحب الفخر والمدح أو بالغ بعض منهم بحبهم الثناء وقدموا أموالهم طيعة بها نفوسهم من أجل أن يرتفع بها شأنهم في القبائل العربية، ويطير حمدهم في الآفاق. وليس الميسر في ليالي الشتاء المقفرة والنحر لكرائم الإبل والانهاب للمال إلا محاولات منهم لإظهار التميز بالجود والبذخ بالشرف الأشم، والارتفاع إلى مكان عالٍ من حب الشهرة، والحرص على كسب فضائل القيم المحمودة الحسنة فهو غريب سيذكر مايلقى وينشر مايعرف حين يرتحل ويغدو، كما يقول الحطيئة:(١)

وَإِنَّ الجَارَ مِثْـلُ الـضَّيْفِ يَغْدُو لِوجْهَتِهِ وَإِنْ طَـالَ الـثَّوَاءُ

ويقول حاتم الطائي:(٢)

وَإِنِّيَ لا آلُو بِمَـالٍ صَنِيعَةً فَأَوَّلُهُ زادٌ وآخِـرُهُ حَمْدُ

ويقول الطفيل الغنوي إن الضيف مخبر بمايلقى ومحدث عن مايجد من الكرم أو غيره ومذيع مايعرف. إن أكرم أذاع الإكرام وأثنى على من أكرمه، وإن بخل عليه أذاع البخل ولام المستضاف وفضحه مع الناس، فيخشاه الياحثون عن الصيت الطيب والذكر المحمود. والأجواد يخشون

---

(١) ديوان الحطيئة ص ٨٧.

(٢) ديوان حاتم ص ٢١٣.

www.mtenback.com

لسان الشاعر ويخافونه أشد الخوف.[1]

وَقَدْ حَاذَرُوا مَا الجَارُ والضَّيْفُ مُخْبِرٌ ... إِذَا فَارَقَا كَلٌّ بِذِلِكَ مُولَعُ

وقد وصف المثقب العبدي ضيفاً يخبط في غياهب الظلماء، ويهيم الليل يطبق عليه من كل جانب ويحيط به فيحجب عنه الرؤية، وهو جاد في سيره وحريص على أن يجد مكاناً يأوى إليه ويستكن به، وبينما هو كذلك إذ لاح له ضوء نار كأنها في كبد السماء، فأكذب نفسه لشدة حرصه أن تكون حقيقة، وما كاد يتيقن من ضوء النار حتى أخذ نشاطه يتجدد وعزمه يتقد فاتجه نحوها وسار مسرعاً حتى أتاها وقد أمطرته تلك الليلة الباردة فبللت ثيابه فكان أحوج للدفء منه للطعام وإن كانت حاجته لكل منهما أشد من الأخرى. وعند النار لقيه المستضيف مرحباً به وكأنه صديق حميم ومستبشراً بمقدمه كأنه الغائب المنتظر فقال في وصف ذلك:[2]

وَسَارٍ تَعَنَّاهُ المَبِيتُ فَلَمْ يَدَعْ ... لَهُ طَامِسُ الظَّلْمَاءِ واللَّيْلُ مَذْهَبَا

رَأَى ضَوْءَ نَارٍ مِن بَعِيدٍ فَخَالَهَا ... لَقَدْ أَكْذَبَتْهُ النَّفْسُ بَل رَآءَ كَوْكَبَا

فَلَمَّا استَبَانَ أَنَّهَا آنَسِيَّةٌ ... وَصَدَّقَ ظَنّاً بَعْدَمَا كَانَ كَذَّبَا

رَفَعْتُ لَهُ بِالكَفِّ نَارًا تَشُبُّهَا ... شَآمِيَةٌ نَكْبَاءُ أَوْ عَاصِفٌ صَبَا

وَقُلْتُ ارْفَعَاهَا بِالصَّعِيدِ كَفَى بِهَا ... مُنَادٍ لِسَارِ لَيْلَةٍ إِنْ تَأَوَّبَا

فَلَمَّا أَتَانِي والسَّمَاءُ تَبُلُّهُ ... فَلَقَّيْتُهُ أَهْلاً وَسَهْلاً ومَرْحَبَا

وَقُمْتُ إِلَى البَرْكِ الهَوَاجِدِ فَاتَّقَتْ ... بِكَوْمَاءَ لَمْ يَذْهَبْ بِهَا النَّيُّ مَذْهَبَا

فَرَجَّعْتُ أَعْلَى الحَقْبِ مِنهَا بِطَعْنَةٍ ... رَعَتْ مُسْتَكِنَّ الجَوْفِ حَتَّى تَصَبَّبَا

---

(١) ديوان طفيل الغنوي ص ٨٦.

(٢) ديوان المثقب العبدي ص ١١٧.

www.mtenback.com

تَسَامَى بَنَاتُ الـغَلْي فـي حجَرَاتِهَا تَسَامَي عِتَاقِ الخَـيْلِ وَرْدًا وأشْهَبَا

ولايختلف الشعراء على أن النار عامل جذب للأضياف ودلالة يعشو إليها المُرْملون والسَّفْر وأهل الحاجة وموقد النار هو مثوى المعوزين وطالبي القرى كما يقول إمرؤ القيس:(١)

لَنِعْمَ الـفَتَى تَعْشُو إلـى ضَوْءِ نَارِهِ طَرِيفَ بْنَ مَالِ لَيْلَةَ الجُوعِ والخَصْرِ

ويقول عمرو بن عبدالله العجلي:(٢)

إذَا أخْمِدَ النِّيْرَانُ من حَذَرِ القِرَي رَأيْتَ سَنَا نَارِي يَشُبُّ اضْطِرَامُهَا

أما حاتم الطائي فيطابق المعنى عند العجلي ويقول:(٣)

إذَا مَا الـبَخِيْلُ الخَبْءُ أخْمَدَ نَارَهُ أقُولُ لمنْ يُصْلِي بِنَـارِي أوْقِدُوا

تَوسَّعْ قَلِيْلاً أوْ يَكُن ثُـمَّ حَسْبُنَا وَمُوقِدُهَا الـبَادِي أعَـفُّ وَأحْمَدُ

وهذان الشاعران يثيران الأمر الذي سنصل إليه بعد قليل. وهو أن ليس كل العرب يوقدون النار ويفرحون بالضيف ويسرون برؤيته لكن هناك من يخمد النار ويتقي واجبات الضيافة، وهو مايفسر فخر الفاخرين من الشعراء باستقبال الضيف والقيام بواجبات الضيافة. ولن يقف البحث الآن عند هذا الجانب من القضية وإنما سيمر لنسمع مزرد بن ضرار يقول:(٤)

فَأبْصَرَ نَارِي وَهْيَ شَقْرَاءُ أوْقِدَتْ بِعَلْيَاءِ نَشْزٍ لـلـعُيُونِ الـنَّوَاظِرِ

---

(١) ديوان إمرئ القيس ص ١١٠.

(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٣.

(٣) ديوان حاتم الطائي ص ٢٦٣.

(٤) البخلاء ص ٢٤٣.

www.mtenback.com

أما المرار الفقعسي فيرى أن النار مجلبة للضيف ويرى غيره يخفيها ولا يرفع سناها فيعرض به ويقسم ألا يفعل كما يفعل هؤلاء:(١)

آليْتُ لا أخْفِي إذَا الـلَّيْلُ جَنَّنِـي ... سَنَا النَّارِ عَـن سَـارٍ ولا مُتَنَوِّرِ
فَيَا مُوْقِدَي نَارِي ارْفَعَـاهَا لَعَلَّهَا ... تُضِيءُ لِسَارٍ آخِرَ الـلَّـيْـلِ مُقْتِرِ
وَمَاذَا عَلَيْنَا أنْ يُوَاجِـهَ نَارَنَا ... كَرِيمُ المُحَيَّا شَاحِـبُ المُتَحَسِّرِ
فَبِتْنَا بِخَـيْرٍ مِنْ كَرَامَةِ ضَيْفِنَا ... وَبِتْنَا نُهَدِّي طُعْمَةً غَيْـرَ مَيْسَرِ

وتعد النار رسول الكريم الجواد إلى ضيفه وإلى من يريد الطعام فهي تبلغه الطلب وترفع له عالياً ليهتدي إليها دون أن يخاف الكريم المضياف من كثرة الطالبين للنار ويزعم أنها حق من حقوق الضيف سواء كان قريباً أو غريباً يقول مضرس بن ربعي:(٢)

وَإنِّي لأدْعـوُ الضَّيْفَ بِالضَّوْءِ بَعْدَمَا ... كَسَا الأرضَ نَضَّاحُ الجَلِيْدِ وَجَامِدُه
لأكْرِمَهُ إنَّ الـكَرَامَةَ حَـقُّـهُ ... وَمِثْلاَنَ عِنْدِي قُرْبُهُ وَتَبَـاعُدُه
أبِيْتُ أعَشِّيهِ الـسَّـدِيفَ لأنَّنِي ... بِمَا نَالَ حَتى يَتْرُكَ الحَيَّ حَامِدُه

ولا يبعد الأفوه الأودي عندما يصف ناره بأنها تشب للقرى وترفع للناظرين فيكون للضيف عندها رحب وسعة فيقول في وصف ذلك:(٣)

ثُمَّ فِينَا لِلْقِرَى نَـارٌ يُرَى ... عِنْدَهَا لِلـضَّيْفِ رُحْبٌ وَسَعَه

ويزعم مسكين الدارمي مثل ذلك:(٤)

---

(١) الحماسة جـ ٤ ص ١٧٢٢.
(٢) الحماسة جـ٤ ص ١٦٩٤.
(٣) ديوان الأفوه الأودي ص ٢٠.
(٤) ديوان مسكين الدارمي ص ٤٥.

www.mtenback.com

وَنَارٍ دَعَوْتُ المُعْتَفِينَ بِضَوْئِهَا فَبَاتُوا عَلَيْهَا أَوْ هَدَيْتُ بِهَا سِفْرَا
تُضَرَّمُ فِي لَيْلِ التَّمَّامِ وَقَدْ بَدَتْ هَوَادِي نُجُومِ اللَّيْلِ يَحْسَبُهَا جَمْرَا

والراعي النميري يزعم أنه يرفع النار ويوقدها حتى يراها من ضل الطريق فيتجه إليها ولايخمد أوارها حتى يصل الطارق ويستقر للقرى فيكون له ماأراد(١)

وَلَمَّا عَرَفْنَا أَنَّهَا أُمُّ خَنْزَرٍ جَفَاهَا مَوَالِيهَا وَغَابَ مُفِيدُهَا
رَفَعْنَا لَهَا نَارًا تُقَبُّ لِلْقِرَي وَلَفْحَةَ أَضْيَافٍ طَوِيلاً رُكُودُهَا
فَمَاذَا ذَكَرْتُمْ مِن قَلُوصٍ عَقَرْتُهَا بِسَيْفِي وَضَيْفَانُ الشِّتَاءِ شُهُودُهَا
قَرَيْتُ الكِلاَبِيَّ الذِي يَبْتَغِي القِرَى وَأُمَّكَ إِذْ تَخْدِي إِلَيْنَا قَعُودُهَا

ونار السموءل لاتخمد خشية الضيف الطارق ولايخيب القاصد لها ولا النازل فيهم، فيحمدهم الضيف ويثني عليهم وليسوا ممن يبخلون في مالهم فيتعرضون للهجاء اللاذع الذي يتعرض له كل بخيل على ضيفه مانع لقراه فيقول:(٢)

وَمَا أَخْمِدَتْ نَارٌ لَنَا دُونَ طَارِقٍ وَلاَ ذُمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ

وله أيضاً:(٣)

فَلاَ أَدْفَعُ الضَّيْفَ عَنْ رِزْقِهِ لَدَيَّ إِذَا قِيلَ لَمْ يُرْزَقِ

وموالي العرب وعبيدهم يأخذون في مذهبهم في الفخر والمدح والحديث

---

(١) ديوان الراعي النميري ص ١٩٣.
(٢) ديوان السموءل ص ٢٦.
(٣) شعر السموءل ص ١٦.

www.mtenback.com

عن الكرم وإقراء الضيف ورفع النار ليهتدي إليها المسافرون، فعبد بني الحسحاس يزعم أنه يعقر الناب ويرفع النار فيقول:[1]

فَقَدْ أَعْقِرُ النَّابَ ذَاتَ التَّلِيـ ... ـلِ حتي أحَاوِلَ منها سِدَافَا
بِمِثْنَى الأيَادِي لِمَنْ يَعْتَفِي ... وأرْفَعُ نَارِى إذَا مَا اسْتَضَافَا

إن الهداية إلى أماكن الاستقرار مطلب للضيف الذي يبحث عن الحي ويريد أن يصل إليهم، والنار كانت إحدي علامات الهداية وقد مر مافيه الكفاية من شعر الشعراء عنها وأنهم كانوا يوقدونها ليراها المسافر ويذهب إليها المقرور ويفخرون عندما تجلب إليهم ضيفاً، فيجد رب المنزل أمامه يقدم له القرى ويلقاه باشا هاشاً فرحاً به، وذاك أول قراه، ولاشك أن الضيف الضارب في متاهات الصحراء سيكون أشد شوقاً وحرصاً على معرفة الأماكن الأهلة بالناس فيطلبها ليجد القرى ويأنس من وحشة الصحراء ويرتاح من عناء السفر ويستزيد من ما هو بحاجة إليه ثم يواصل السير إلى غايته.

(ب) الاستنباح

ولكن النار لن تدوم مشتعلة الليل كله ولو زعم بعض العرب أنهم يفعلون ذلك، فلابد أن ينام السامرون على ضوء النار، والموقدون لها، وتبقى الحاجة إلى وسيلة أخرى يهتدي بها الضيف ليعرف أين يتجه وكيف يسير، فكان الكلب العاوي الساهر على الحراسة موضوعاً من موضوعات الفخر في الشعر العربي عندما يزعم الشاعر أن كلبه لاينام، وأن الضيف لشدة حرصه على القرى وحبه في أن يجد المأوى سينبح كما ينبح

(١) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ص ٤٥.

www.mtenback.com

الكلب لعل الكلاب تجيبه فيعرف مكان الحي فيتجه إليه، وأن الكريم الجواد إذا سمع ذلك قام ورفع للضيف النار وأشلى الكلاب حتى يدل نباحها الضيف فيقول:(١)

وَمُسْتَنْبِحٍ بَاتَ الصَّدَى يَسْتَتِيهُهُ ... فَتَاهَ وَجُوزُ اللَّيْلِ مُضْطَرِبُ الكِسْرِ
رَفَعْتُ لَهُ نَارًا ثَقُوبًا زِنَادُهَا ... تُلِيحُ إِلَى السَّارِي: هَلُمَّ إِلَى قِدْرِي
فَلَمَّا أَتَى وَالْبُؤْسُ رَادِفُ رَحْلِهِ ... تَلَقَّيْتُهُ مِنِّي بِوَجْهِ امْرِئٍ بِشْرِ
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلٌ كَأَهْلٍ فَلَمْ يَجُرْ ... بِكَ اللَّيْلُ إِلا لِلْجَمِيلِ مِنَ الأَمْرِ
وَكَادَتْ تُطِيرُ الشَّوْلَ عِرْفَانُ صَوْتِهِ ... وَلَمْ تُمْسِ إِلا وَهْيَ خَائِفَةُ العَقْرِ

ومثله قول الآخر:(٢)

وَمُسْتَنْبِحٍ أَهْلَ الثَّرِيِّ يَطْلُبُ القِرَى ... إِلَيْنَا وَمَمْسَاهُ مِنَ الأَرْضِ نَازِحُ

والراعي النميري يقول أيضاً:(٣)

وَمُسْتَنْبِحٍ تَهْوَى مَسَاقِطُ رَأْسِهِ ... عَلَى الرَّحْلِ فِي طَخْيَاءِ طَلْسٍ نُجُومُهَا
رَفَعْتُ لَهُ مَشْبُوبَةً عَصَفَتْ بِهَا ... صَبًا تَعْتَفِيهَا تَارَةً وَتُقِيمُهَا
فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُؤَادُهُ ... وَبَشَّرَ نَفْسًا كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

أما عتبة بن بجير الحارثي فهو أيضاً يشارك في وصف الطارق في سواد الليل وهو يحاول أن يهتدي إلى مكان الحي فينبح كما ينبح الكلب ويتوهم لحرصه أنه يسمع نباحاً ومايسمع غير الصدى الذي يتردد في أنحاء القفر فيميل إليه ويطلبه فلايجد شيئاً، ويرهق سمعه فلا يتأكد له ماتوهمه،

(١) الآمالي جـ١ ص ٢١٠.
(٢) البخلاء ص ٢٣٧.
(٣) ديوان الراعي النميري ص ٢٥٩.

www.mtenback.com

فيكرر الصوت مرة أخرى حتى يسمع صوت الرجل الكريم فلايجثم مكانه ولايستلذ النوم ودفء الفراش كما يقول عتبة في الأبيات الآتية:(١)

وَمُسْتَنْبِحٍ بَاتَ الصَّدى يَسْتَتِيهُهُ ... إلي كُلَّ صَوْتٍ فَهْوَ في الرَّحْلِ جَانِحُ
فَقُلْتُ لأَهْلِي: مَا بُغَامُ مَطِيَّةٍ ... وَسَارٍ أَضَافَتْهُ الكِلاَبُ النَّوابِحُ
فَقَالُوا غَرِيبٌ طَارِقٌ طَوَّحَتْ بِهِ ... مُتُونُ الفَيَافي والخُطُوبُ الطَّوَائِحُ
فَقُمْتُ وَلَمْ أَجْثُمْ مَكَانِي وَلَمْ تَقُمْ ... مَعَ النَّفْسِ عَلاَّتُ النُّفُوسِ الشَّحَائِحُ
وَنَادَيْتُ شِبْلاَ فَاسْتَجَابَ وَرُبَّمَا ... ضَمِنًا قِرَي عَشْرٍ لِمَنْ لاَ نُصَافِحُ
فَقَامَ أَبُو ضَيْفٍ كَرِيمٍ كَأَنَّهُ ... إِذَا جَدَّ مِنْ فَرْطِ الفُكَاهَةِ مَازِحُ
إِلَى جِذْمِ مَالٍ قَدْ نَهَكْنَا سَوَامَهُ ... وَأَعْرَاضُنَا فِيهِ بَوَاقٍ صَحَائِحُ
جَعَلْنَاهُ دُونَ الذَّمِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... إِذَا عُدَّ مَالُ المُكْثِرِينَ مَنَائِحُ

لقد أحسن الإحسان كله بتصوير غربة الضيف وأحسن التعبير عندما وصف إعمال المطي ومن طوحت له متون الفيافي كما يقول وماتعرض له الغريب من خطوب وآثار الهلكة في جوف الصحراء وهو لايجد من يقدم له طعام يوم ولامتاع ساعة فيجيبه العربي المضياف ويخفف عنه ألم الجوع ويؤنس وحشته فيعد ما قام به عملاً يستحق أن يفخر به الفاخرون وأن ينشد الشعر في ذكره وهذه الأبيات تعضد معنى الأبيات السابقة:(٢)

وَمُسْتَنْبِحٍ تَهْوَى مَسَاقِطُ رَأْسِهِ ... إلى كُلِّ شَخْصٍ فَهْوَ لِلسَّمْعِ أَصْوَرُ
حَضَأْتُ لَهُ نَارِي فَأَبْصَرَ ضَوْءَهَا ... وَمَا كَادَ لَوْلاَ حَضْأَةُ النَّارِ يُبْصِرُ
دَعَتْهُ بِغَيْرِ اسْمٍ هَلُمَّ إِلَى القِرَى ... فَأَسْرَى يَبُوعُ الأَرْضَ والنَّارُ تُزْهِرُ
فَلَمَّا أَضَاءَتْ شَخْصَهُ قُلْتُ مَرْحَبًا ... هَلُمَّ وَلِلصَّالِينَ بِالنَّارِ أَبْشِرُوا

(١) الحماسة ص ١٥٥٧.

(٢) الحماسة ص ١٦٤٦.

www.mtenback.com

أما شبيب بن البرصاء فقد وصف ضيفه وقد أطبقت عليه ظلمات الليل، وهو لايسمع شيئًا ولايرى أحدًا، فاستنبح لأجل المبيت والدفء، عندئذ هب شبيب لإغاثته وأسرع ملبيًا دعوته فرفع النار له حتى يهتد إليه فقال:(١)

وَمُسْتَنْبِحٍ يَبْغِي المَبِيْتَ وَدُونَهُ ... مِنَ اللَّيْلِ سِجْفًا ظُلْمَةٍ وَسُتُورُهَا
رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَلَمَّا اهْتَدَى بِهَا ... زَجَرْتُ كِلاَبِي أَنْ يَهِرَّ عَقُورُهَا
فَبَاتَ وَإِنْ أَسْرَى مِنَ اللَّيْلِ عَقْبَةً ... بِلَيْلَةِ صِدْقٍ غَابَ عَنْهَا شُرُورُهَا
فَلاَتَسْأَلِينِي وَاسْأَلِي عَنْ خَلِيقَتِي ... إِذَا رَدَّ عَافِي القِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا
تَرَيْ أَنَّ قِدْرِي لاَتَزَالُ كَأَنَّهَا ... لِذِي الفَرْوَةِ المَقْرُورِ أُمٌّ يَزُورُهَا

ولم يذهب عمرو بن الأهتم بعيداً عن معنى الشعراء في شأن المستنبح الذي يرسل صوته مع ريح الليل البارد عسى أن يثير الكلاب العاويات فيجبنه بصوت مثل صوته فيعرف الطريق إلى حيث يريد ويجد في هزيع الليل الأخير زاداً يعيش منه، ورفيقاً يرحب به ويقطع عنه رهبة الخوف وبعد الشقة فيتعلل بعض ليله ثم يصبح مسافراً إلى مايريد من رحلته التي توصف دائماً بالمشقة والبعد فيقول فيمن هذه حاله:(٢)

وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الهُدُوءِ أَجَبْتُهُ ... وَقَدْ حَانَ مِنْ سَارِي الشِّتَاءِ طُرُوقُ
يُعَالِجُ عِرْنِينًا مِنَ اللَّيْلِ بَارِدًا ... تَلُفُّ رِيَاحٌ ثَوْبَهُ وَبُرُوقُ
أَضَفْتُ وَلَمْ أَفْحُشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ ... لأَحْرِمَهُ إِنَّ الفَنَاءَ يَضِيقُ
فَقُلْتُ لَهُ: أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبًا ... فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقُ
وَضَاحَكْتُهُ مِنْ قَبْلِ عِرْفَانِيَ اسْمَهُ ... لِيَأْنَسَ بِي إِنَّ الكَرِيمَ رَفِيقُ

(١) شعر شبيب بن البرصاء، شعراء أمويون ص ٢٢٨.
(٢) شعر عمرو بن الأهتم ص ٩٣.

www.mtenback.com

وَقُمْتُ إلى البَرْكِ الهَوَاجِدِ فَاتَّقَتْ مَقَاصِيدَ كَوْمٍ كَالمَجَادِلِ رُوْقُ
بِأدْمَاءِ مِرْبَاعِ النِّتَاجِ كَأنَّهَا إذَا عَرَضَتْ دُونَ العِشَارِ فَتِيْقُ
بِضَرْبَةِ سَاقٍ أوْ بِنَجْلاَءَ ثُرَّةٍ لَهَا مِن زِمَامِ المَنْكِبَيْنِ فَتِيْقُ
فَبَاتَ لَنَا مِنْهَا وَلِلضَّيْفِ مَوْهِنًا شَوَاءٌ سَمِيْنٌ زَاهِقٌ وَغَبُوقُ
وَبَاتَ لَهُ دُوْنَ الصَّبَا وَهِيَ قَرَّةٌ لِحَافٌ وَمَصْقُولُ الكِسَاءِ رَقِيْقُ
وَكُلُّ كَرِيْمٍ يَتَّقِي الذَّمَّ بِالقِرَى وَلِلْخَيْرِ بَيْنَ الصَّالِحِيْنَ طَرِيْقُ

أبيات جميلة أخذت الاستنباح سبباً حتى تتيح أمام الشاعر فرصة لحديثه عن ضيفه وعن نفسه وقد عرض واقع الحال لكلا الجانبين الضيف والمضيف وشرح ما عليه أهل الصحراء من شظف العيش الذي يعانيه أكثر سكانها إن لم يكن كل السكان، وهي تضيف بعداً جديداً إلى ماتكرر وصفه فيما سبق من لوحات فنية تميز نظمها بسبك مثير لعاطفة المروءة ووصف واقعي للحاجة التي تنال المرء في بعض الظروف فيستجيب تلقائياً مع متطلبات الضرورة ويتفاعل وجدانياً مع الحاجة ويقدر البؤس الذي يجهد السالكين في رحاب الجزيرة الوعرة. وقد فخر مثل غيره من الشعراء إلا أنه أشار إلى ملمح إنساني في أبياته أعطى قصيدته معنى قلماً عرض له الشعراء الفاخرون إذ وصف تبسطه للضيف وإن وكان حسن اللقاء مع القرى يملأ نفس الغريب اطمئناناً ورضىً حتى يأنس الأنس كله. وقد زعم أنه أتحفه باللحاف الوثير ورفق به كل الرفق حتى طابت نفسه وهدأت بعد عناء وشفقة وخوف ومشقة من ظلمات الليل وترقب للمجهول. تلك بعض صور الحياة التي نلمسها في ثنايا الشعر وطوايا اللغة الشاعرة حتى لكأن الأمر بالنسبة للشاعر سرمدي أبدي لايذهب بعيداً ولايتزحزح جانباً وكلما أظلم الطقس وأدلهم الليل أتت سماحة العربي الجواد ورقة عاطفته

www.mtenback.com

وسمو طبعه لتجلو ظلمات اليأس ببريق الأمل فيعود إلى طبعه من الكفاح ويحسن الاستقبال والمعاملة. ويعد ذلك كله تخلصاً من كآبة الحياة ورتابة الواقع ويبعث الأمل في كلمات تحس المروءة في كل مقطع من مقاطع لغته وينطق لسانه بشيء غير قليل للمبادئ الخالدة فيأتي الشعر مشرقًا في قسوة الحياة كإشراق النار التي يذكر الشاعر ذكاءها في الأبيات الآتية:(١)

وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الْهُدُوءِ دَعَوْتُهُ ... بِشَقْرَاءَ مِثْلِ الْفَجْرِ ذَاكٍ وَقُودُهَا
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبًا ... بِمُوقِدِ نَارٍ مُحْمِدٍ مَنْ يَزُورُهَا
نَصَبْنَا لَهُ جَوْفَاءَ ذَاتَ ضَبَابَةٍ ... مِنَ الدُّهْمِ مِبْطَانًا طَوِيلاً رُكُودُهَا
فَإِنْ شِئْتَ أَثْوَيْنَاكَ فِي الْحَيِّ مُكْرَمًا ... وَإِنْ شِئْتَ بَلَّغْنَاكَ أَرْضًا تُرِيدُهَا

والضارب في متاهات الليل وفجاج الجزيرة تدفعه حاسة الاستشعار إلى أقرب مايبحث عنه لكنه لايجد طريقه إليه فيعوي كما تعوي الذئاب الضاريات عسى أن يسمع صوتًا يستجيب له:(٢)

عَوَى جَرَسٌ، وَاللَّيْلُ مُسْتَحْلَسُ النَّدَى ... لِمُسْتَنْبِحٍ بَيْنَ الرُّوَيْثَاتِ وَالْحَفْرِ
فَقَالَ امْرُؤٌ فُوهُ مِنَ الْجُوعِ عَاصِبٌ ... أَلَمْ تَسْمَعَا نَبْحًا بِرَابِيَةِ النَّسْرِ
فَشُبَّتْ لَهُ نَارَانِ: نَارٌ بِرَهْوَةٍ ... وَنَارُ بَنِي عَبْدَالْمَدَانِ لَدَى الْقَهْرِ
وَشُبَّتْ لَهُ نَارُ ابْنِ طِمْرٍ بَدَا لَهُ ... سَنَاهَا وَأَنَّى مِنْهُ نَارُ بَنِي طِمْرِ
فَلاَ غَرْوَ إِلاَّ حِينَ يَضْرِبُ مَوْهِنًا ... -لِيُوقِظَ أَهْلَ الْبَيْتِ-سَالِفَةَ الْبَكْرِ

أو يقول الآخر:(٣)

وَعَاوٍ عَوَى وَاللَّيْلُ مُسْتَحْلِسُ النَّدَى ... وَقَدْ ضَجِعَتْ لِلْغَوْرِ تَالِيَةُ النَّجْمِ

---

(١) الحماسة جـ٤ ص ١٦٤٣.

(٢) ديوان مزرد بن ضرار الغطفاني ص ٤٩.

www.mtenback.com

وماذا سيلقى الضيف بعد طول الليل وإجهاد السرى ذلك مايجيب عنه حاتم الطائي في أبيات من أجمل ما وصفت به آداب الضيافة العربية إذ يقول:(١)

قُدُوريَ لِلضَّيْفِ مَنْصُوبَةٌ وَمَا يَنْبَحُ الكَلْبُ أَضْيَافِيَه
وَإِنْ لَمْ أَجِدْ لِنَزِيلِ القِرَى قَطَعْتُ لَهُ بَعْضَ أَطْرَافِيَه

ويدعي أن للكلب عنده يداً يسديها إليه ويحفظها الجواد لهذا الحيوان الأليف وهي أنه يدل الضيف عليه ويهديه إليه فيقول:(٢)

تَدُلُّ ضَيْفِي عَلَيَّ فِي غَلَسِ الـ ـلَّيْلِ إِذَا النَّارُ نَامَ مَوْقِدُهَا

ويعد نفسه مشفقاً على الضيف رفيقاً به لايرضى أن يمنعه منه أحد ولايريد أن يعترض سبيله عارض حتى لو كان الكلب الذي درب على الحراسة وحماية الحي في الليل حين تنام الأعين وتسهر الكلاب للحماية فيقول:(٣)

فَنِعْمَ مَحَلُّ الضَّيْفِ لَوْ تَعْلَمِينَهُ بِلَيْلٍ إِذَا مَا اسْتَبْشَرَتْهُ النَّوَابِحُ

ويزعم أن كلبه تخلق بطبيعة خاصة فصار جباناً لايهر الغرباء ولايبعدهم عن ساحته فتحول حتى طبع الكلب وتبدل تدريبه من الحماية إلى الهدوء والاستئناس بالغريب والضيف. والكلاب يطلب منها أن تكون شديدة العداوة للغريب تدافعه عن المنزل وتصول عليه كلما حاول الاقتراب منه.

---

(١) ديوان حاتم الطائي ص ٢٥٤.

(٢) ديوان حاتم الطائي ص ٢٦٥.

(٣) ديوان حاتم الطائي ص ٢٥٠.

www.mtenback.com

أما كلب الجواد المضياف فليس كذلك لكنه جبان تأتي صفته في الأبيات التالية:(١)

إذَا مَا بَخِيْلُ الـــنَّاسِ هَرَّتْ كِلاَبُهُ ... وَشَقَّ على الضَّيْفِ الضَّعِيْفِ عَقُورُهَا
فَإِنِّى جَبَانُ الـــكَلْبِ بَيْتِى مُوَطَّأٌ ... أَجُوْدُ إِذَا مَا النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيْرُهَا
وَلَيْسَ عـلـــى نَارِي حِجَابٌ يُكِنُّهَا ... لِمُسْتَوْبِصٍ لَيْلاً وَلَكِـــــنْ أُنِيْرُهَا

ويقول أيضاً:(٢)

بِأَنِّى لاَيَهِرُّ الـــكَلْـــبُ ضَيْفِي ... وَلاَ يُقْضَى نَجِـيُّ الـقَـوْمِ دُونِي

هذا نموذج من الشعر الذي جعل النار نبراساً للهداية يراها الأضياف فيفرحون بها أشد الفرح، ومثلها نباح الكلب الذي لاينام للحراسة ولجلب الضيف فيفخر الشاعر بأن كلبه جبان وناره موقدة وصدره رحب للضيافة لايضيق بالقادمين إلى ضوء النار.

(١) ديوان حاتم الطائي ص ٢٤٥.
(٢) ديوان حاتم الطائي ص ٢٨٩.

www.mtenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

كيفية استقبال الضيف

الهيئة التي صور الشعراء فيها استقبال الضيف عند نزوله في الحي ذات وجهين:

الأول:

الفخر بإكرام الضيف والاهتمام به وتقديم الطعام إليه وإحلاله محل النفس.

الثاني:

الهجاء بتركه أو التهرب عنه ومحاولة الخلاص من حقه. فيسلط الشاعر لسانه على من هذه صفاتهم ويعيرهم بهذه الخصال الذميمة وسيأتي من كلا الموضوعين شاهد. لكن كتب الأدب تضيف إلى القرى صورة من صور حسن الاستقبال للضيف وحسن معاشرته وتقديم المساعدة المعنوية له أثناء نزوله في الحي وقد عبروا عن هذه الأحوال بأعمال تدل على التهيئة النفسية للضيف حتى لايشعر أنه طارئ أو أنه غريب أو غير مرغوب في بقائه واستمراره، فقد روي عن أبي البختري وهب بن وهب القرشي أنه إذا نزل به ضيف أسرع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة وفعلوا به كل جميل فإذا هَمَّ بالرحيل تخلوا عنه ولم يقربه أحد منهم وتجنبوه فإذا أنكر عليهم ذلك، قالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولانعينه على

www.mtenback.com

الرحيل.[1] وقد جعلوا قرى الضيف واجباً وزادوا على ذلك الإكرام له، قيل للأوزاعي ماكرامة الضيف؟ قال: طلاقة الوجه.

وقال الشاعر:

أضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إنْزَالِ رَحْلِهِ ... وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالمَكَانُ جَدِيْبُ

وَمَا الخِصْبُ لِلأَضْيَافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى ... وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الكَرِيْمِ خَصِيْبُ

ثم جعلوا خدمة الضيف بالنفس شرفاً لايأباه أحد منهم مهما كانت مكانته في المجتمع فقالوا: أربع لايأنف منهن أحد ولاينبغي لشريف أن يأنف منهن وإن كان أميراً: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالم يتعلم منه، والسؤال عمَّا لايعلم ممن هو أعلم منه، وخدمة الضيف بنفسه إكراماً له.[2] وفيماينسب لعبد الملك بن مروان قوله: أربع لايستحى من خدمتهم، السلطان والوالد والضيف والدابة[3].

وليست وجبة الطعام التي يقدمها المضيف لضيفه هي كل ماعبرت عنه أدبيات الموروث الثقافي الذي وصف نزول الضيف وحالة استقباله وتحدث عنه فخصه بكم كبير من العناية والاهتمام. ولكنا نجد أن جانباً إنسانياً وأخلاقياً كريماً قد أثر عنهم وهو البشر به والبشاشة له عند رؤيته الأولى وكسر حاجز دهشة اللقاء بالترحيب. فالضيف وصف في الشعر بأنه غريب عن الحي غير معروف فيه يأتي فجأة لاتربطه بصاحب المنزل صلة ولا رابطة غير الضيافة فكان من حقه الذي أوجبه الأجواد على أنفسهم وألزموها به بشاشة اللقاء وإشراق الوجه عند رؤيته وإظهار السرور والحفاوة بالطارق حتى

(١) المستطرف جـ١، ص ٣٥٨.

(٢) الامتاع والمؤانسة جـ٣ ص ٤.

(٣) المقتطف من أزهار الطرف ص ٢١٣.

وانظر هذا المعنى في روايات أخرى في كتاب الخيل للكلبي ص ٤٢.

www.mtenback.com

يأنس وتهدأ نفسه بقربهم وتطمئن إليهم فيشعر بالأمان، وهم يعدون تلك الخصال جزءاً من القري وتعبيراً عن سماحة أخلاقهم وتصديقاً لمروءتهم. فأجادوا في إظهار جانب اللطف ودماثة الخلق وجعلوها من مقومات الضيافة وأدب المضيف فألمَّ بها الشعراء، وذكروا حسن الاستقبال حتى تزول كزازة الغربة ووحشة الضيف واتسعت دائرة الحديث عن لحظات الرؤية الأولى. وزعموا أن من إتمام القرى ألا يقابلوا الضيف متجهمين ولاعابسين يقول الأخطل:(١)

وَإِنِّي لَحَلَّالٌ بِـــيَ الحَـــقُ أتَّقِيْ إِذَا نَزَلَ الأَضْيَـــــافُ أنْ أتَجَهَّمَا

أما حاتم الطائي فيصور حبه للضيف وتعبيره عن السرور بمقدمه ويزعم أن القرى لايكفي وحده ولو قدموا له كل شيء إنما القرى الحقيقي هو طلاقة وجه الكريم وتعبيره المشرق عند استقبال الضيف وترحيبه به، ذلك هو الخصب المعنوي والأدب الأخلاقي الذي يقرره الشاعر ويفخر به في الأبيات التالية:(٢)

أضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إنْزَالِ رَحْـلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْـدِي وَالمَحَلُّ جَدِيْبُ
وَمَا الخِصْبُ لِلأَضْيَافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَي وَلَكِـــنَّمَا وَجْهُ الـــكَرِيْمِ خَصِيْبُ

ويرد المعنى نفسه عند عدد من الشعراء أو يجود به الرواة على عدد منهم فيبرزون ملامح البشاشة والترحيب بالضيف والإيثار له واللطف، وأخذه بالرفق وإلهائه حتى لايشعر بالإنعزال أو الغربة وصحبته في الإقامة ومسامرته

---

(١) ديوان الأخطل ص ٦٠٠.

(٢) ديوان حاتم الطائي، ص ٣٠٩.

www.mtenback.com

في الليل ومشاركته فيما يجلب السرور إلى نفسه وهذا عروة بن الورد يقول:[1]

فِرَاشِيْ فِرَاشُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتَهُ[2] ... وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الحَدِيْثَ مِنَ الْقِرَى ... وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

ويكرر مسكين الدارمى الأبيات أيضاً فيقول:[3]

طَعَامِي طَعَامُ الضَّيْفِ وَالرَّحْلُ رَحْلُهُ ... وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الحَدِيْثَ مِنَ الْقِرَى ... وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

وله أيضاً:[4]

وَإِنِّيَ وَالأَضْيَافُ فِي بُرْدَةٍ مَعًا ... إِذَا مَاتَ نِصْفُ الشَّمْسِ وَالنِّصْفُ يَنْزَعُ

والمعنى إياه يورده الرواة لطفيل الغنوي وينسبون إليه البيتين التاليين:[5]

لِحَافِي لِحَافُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ ... وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الحَدِيْثَ مِنَ الْقِرَى ... وَتَكْلَأُ عَيْنِي عَيْنَهُ حِينَ يَهْجَعُ

والأبيات الأخيرة في معنى واحد وعلى بحر واحد وروي واحد وقد نسبت إلى أكثر من شاعر من شعراء العربية كل منهم حاز فضلها

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٦٥.

(٢) أعرف من عادات بعض العرب في الوقت الحاضر أنه إذا نزل بالرجل منهم الضيف شاركه طعامه وبقى معه يسامره ويرافقه ولايترك ملازمته ليلاً أو نهاراً مادام مقيماً عنده حتى لايشعر بالملل والوحدة.

(٣) ديوان مسكين الدارمي ص ٥١.

(٤) ديوان مسكين الدارمي ص ٥١.

(٥) ديوان طفيل الغنوي ص ١٠٣.

www.mtenback.com

وأضيفت إليه، ولايهم الباحث صحة نسبتها لواحد منهم أو لآخر وإنما المهم معناها الذي توارده الشعراء وأضافه الرواة لهم. والتجاذب العام للأبيات عند النقلة –وكلها تقرر شيئاً واحداً– يدل على استحسان معناها عند الناس وهو الحديث والبشاشة وطلاقة الوجه ومسامرة الضيف، وهو القرى الحقيقى في رأيهم. وما تنازع الشعراء فيهن أو الرواة لهن إلا لمايجدون من إشاعة السماحة وقرب التقبل، وكل عربي يحب أن يجد في نفسه ما وصفته الأبيات عندما يستقبل الضيف أو عندما يحل هو ضيفاً على أحد فيحسن الاستقبال ويلقى مثله وليس هناك مايمنع أن يكون كل من الشعراء قد عبر عن الخاطرة نفسها لأن هذا الإحساس شعور مشترك يتكلم به الإنسان باللغة التي يستطيع، وإن لم تكن لغة الشعر ويدركه في وجدانه فيأتي على لسانه طبعاً لاتكلف فيه، إلا أن التطابق التام بين الأبيات المذكورة تقلل من احتمال توارد الخواطر العفوية ومصادفة توافق الإحساس الشخصي، وتشير إلى خلط الرواة وأخطاء الجماع ويبقى الشاهد عندنا هذه الروح التي تليق بشهامة العرب وسخائهم وحوافز البذل في وجدانهم ولذا تم قبول الشعر وتداول الناس المعنى بغض النظر عن شخصية الشاعر وحقيقة نسبة الشعر إلى أي منهم.

www.mtenback.com

علاقة الكرم بظروف البيئة

محور الحديث في كل مامرَّ هو القرى والضيف والجود له والبراءة من شائبة البخل عليه. إذ يعلن الكريم أنه يجود بماله ويدفعه ولو كان بحاجة إليه ويطلبه الضيف الذي يسعى إلى فضل الأجواد وأهل السخاء فيجد عندهم مايعينه على مواصلة الرحلة ومشقة الطريق. والحديث عن القرى والمدح به هو العوض المعنوي الذي يزعم الشاعر أن الجواد يأخذه مقابل مايقدم للأضياف كما يظهر الفخر الجامح بالخلق الكريم ويعظم تضحيته ويزعم أنه يقدم للضيف حين يراه حاجته من طعام ولحاف ومسامرة حسنة واستقبال باش.

والسؤال الذي يجب أن يسأل هو هل يتناسب كل هذا الفخر والمدح مع تقديم وجبة طعام لغريب جائع وطارق مجهود؟ إن الشاعر الذي يملأ الصحائف بالشعر عن كرم الضيافة وعن قيامه بحق الضيف ثم مبالغته بما قدم لابد أنه يعرف بعداً اجتماعياً ألجأه إلى الحديث عن سخائه وسوغ مبالغته في ذكر الضيافة ومايترتب عليها من تكاليف صعبة وإن كانت في نظر البعيدين عنها هينة صغيرة عند من لايعرف شدة الحاجة إليها. ولايمكن أن يتصور تلك الحاجة والشدة من يقرأ الشعر وهو خارج الجزيرة وبعيد عن حياتها وبيئتها. أما من عاش الحياة الصحراوية وعرف قسوتها وأدرك انقطاع سكانها في فجاج واسعة من الأرض لاتجود بالكثير من

www.mtenback.com

الخير بل قد لاتجود بشيء في بعض الظروف فإنه هو الذي يقوّم صراع الأجواد وفخر الفاخرين. ويدرك أهمية القرى ومايترتب على ذلك من ضرورة تجعل مبالغة العرب مقبولة. فهم يعيشون الكفاف في الصحراء القاحلة وليسوا في بيئات الخصب وضفاف الأنهار. وإذا كان تقديم وجبة طعام لضيف طارق لاتستاهل كل مايقال عنها عند من يقرأ الشعر في غير زمنه وبيئته فستعرض الدراسة بعض الأبيات التي تبين شدة الفقر وتجسم المأساة التي يعيشها الناس وتسوغ الأمر الذي حدا بالعرب إلى أن يمجدوا من يتميز فضله في القرى واستقبال الضيف فيكبر في نفوسهم ويعظم قدره عندهم ويصبح ممدوحاً مبجلاً لاينازعه أحد إلا أن يفعل كفعله حتى يفوقه أو يصير مثله. وهذا حاجز بن عوف الأزدي يصف شدة الحياة وقلة الخير فيها فيقول:(١)

سَلَىْ عَنِّى إِذَا اغْبَـــرَّتْ جُمَادَى وَكَانَ طَعَامُ ضَيْفِهِمُ الثُّمَامَا
أَلَسْنَا عِصْمَةَ الأَضْيَـــافِ حَتَّى يُضَحَّـــي مَالُهُم نَفَـــلاً تَوَامَا
فَلَو صَاحَبْتَنَا لِرَضِـــيْتَ عَنَّا إِذَا لَمْ تَغْبِقِ المِائَـــةُ الـــغُلَامَا

إن مايصف حاجز في أبياته هنا هو السبب الذي جعل النادر من القوم قادراً على مقاومة اللأواء والشدة، فمائة من الإبل لاتروي الطفل لما أصابها من محل وهزال وضعف، والإبل هي عماد حياتهم وقوام معاشهم فكم يحتاج أهل البيت منها ليعيشوا على ألبانها. وحاجز يحدد الظرف الذي يحسن فيه الجود ويختار الشدة والمسغبة موضعاً لجوده ومكاناً لفخره. إن أيام الجدب الكادح هي أكثر أيام الجزيرة العربية وقد يلجأ ساكنوها إلى أن

---

(١) قصائد جاهلية نادرة ص ٨٣.

www.mtenback.com

يأكلوا الأشجار وخشاش الأرض حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة فإذا جادوا في هذه الظروف حق لهم أن يفخروا بجودهم.

أما عمرو بن أحمر الباهلي فالممدوح عنده هو ذاك السيد الجواد الذي يكون جوده وكرمه في وقت الحاجة واشتداد الأزمة عندما لايستطيع الرجل أن يعول أولاده فضلاً عن الضيف في هذا الحال يتميز الجواد ويصبح الكريم ملجأ الضيف لايصد عنه ولايحرمه فيقول:(١)

غَطَارِفُ لاَيَصُدُّ الضَّيْفُ عَنْهُمْ إِذَا مَا طَلَّقَ الْبَرِمُ الْعِيَالاَ

وشبيب بن البرصاء يقيم صراع الحياة على قسوة الطبيعة وقلة مايجود به فيظهر التحدي على الرغم من مواجهة الفقر والجوع والخوف منهما فيقول:(٢)

لَقَدْ عَلِمَتْ أُمُّ الصَّبِيِّينِ أَنَّنِي إِلَى الضَّيْفِ قَوَّامُ السِّنَاتِ خَرُوجُ
وَإِنِّي لأُغْلِي اللَّحْمَ نَيْئًا وَإِنَّنِي لِمِمَّنْ يُهِينُ اللَّحْمَ وَهْوَ نَضِيجُ
إِذَا المُرْضِعُ العَوْجَاءُ بِاللَّيْلِ عَزَّهَا عَلَى ثَدْيِهَا ذُو وَدْعَتَيْنِ لَهُوجُ
إِذَا مَا ابْتَغَى الأَضْيَافُ مِنْ يَبْذُلُ القِرَى قَرَتْ لِيَ مِقْلاَتُ الشِّتَاءِ خَدُوجُ

حتى هذا الحي الذي لاتجد فيه المرضع المرمل الطعام لنفسها أو طفلها، يطرقه الضيف ثم لايحرم ولايعتذر له وإنما يقوم الرجل إلى مايملك وهي الناقة التي هي عماد حياته فينحرها ليطعم ضيفه والحي معه ولاشك أن ذلك مقام يستحق الثناء والإشادة بفضله ويحق له أن يفخر بنفسه وبفعله،

(١) ديوان عمرو بن أحمد الباهلي ص ١٣١.

(٢) الكامل، جـ١، ص ١٩٢، وشعر شبيب بن البرصاء مجموع مع شعر شعراء أمويون ص ٢٢٤.

www.mtenback.com

ويحق لغيره أن يمدحه ويشيد به لتبقى مسالك الجود مطروقة وحياضه مترعة موروده. وليس العوز هو المثبط الوحيد لعامة الناس عن القرى لكن ليالي الشتاء الباردة وجوها المكفهر عامل تثبيط آخر، والمحافظ على مشارع المروءة يتجاوز المثبطات ويتجاوب مع متطلبات التقاليد والعادات فيقول الأخطل:(١)

فَجَـــاءَ وَقَـــدْ بَلَّـــتْ عَلَيْه ثِيَابَهُ سَحَابَةُ مُسْوَدٌّ مِـــن الـــلَّيْل أظْلَمَا
وَفِي لَيْلَةٍ مـــا يَنْبَحُ الكَلْبُ ضَيْفَهَا إذَا نُبِّـــهَ المِبْلَـــودُ فِيْهَـــا تَغَمْغَمَا

أما موضوع الحاجة والحديث عنها وعن الاعدام حين لايجد المرء شيئاً يقرى به الضيف ولايجد الضيف سعة في احتمال الجوع حتى تنفرج المأساة، فإننا نجد أن الشعر العربي حفظ لنا قصيدتين تشرح كل منهما أبعاد الصورة القائمة عندما تحكم الظروف التي يكون الخروج من حلقات البؤس فيها معجزة تستحق التسجيل، وتبقى بعد انفراجها سطوراً من صحائف المجد لايمحوها الزمن ولاتخلولق مع مرور الأيام. وقد أدرك النقاد كل أبعاد الواقع الاجتماعي وشرحوا ظروف المفارقة فى البذل والعطاء وقوموا العمل بظروف حدوثه، ولم ينقلوه إلى غير موضعه من التاريخ وعدوا من جاد بشربة ماء.. أجود أجواد العرب وخلّده بذله الشربة، ولم يختلف اثنان على عظمة جوده برطل ماء، لكنه رطل كان ثمنه الحياة كلها، حياة الجواد الذي قدمها قرباناً للمروءة والكرم والتضحية حتى بقي مع الخالدين. ووجبة الطعام في بعض الظروف وفي بعض الأزمات تساوي الحياة كلها.

---

(١) ديوان الأخطل ص٥٩٩.

www.mtenback.com

أما القصيدتان :

فأولهما قصيدة الحطيئة المشهورة التي وشحها خيال مبدع، تصور موقف التأزم الإنساني في لحظات حرجة تصل بالمرء حدَّ الاختناق والموت كمداً ثم تتحرك في النفس الكريمة طبيعة الثبات والصمود في معدنه، ويحدث الصراع الطبيعي بين الإذعان للواقع والانهزام أمام الأزمات الحادة والمواقف الطارئة في حياته وبين المواجهة التي قد تعرض نفسه للخطر وواقعة لضروب من الابتلاء قد ينجح فيها وقد يفشل أمامها ولأن قصيدة الحطيئة من نسج خياله الذي أبدع فيها كل الإبداع فإن الصراع فيها سينتهي نهاية تتفق مع تصميم العقل العربي على مواجهة أزمة الطبيعة التي يصارعها والانتصار عليها لأنها نتيجة حتمية للتصور والشعور الإرادي ولذلك كانت النهاية عند الحطيئة نهاية سعيدة محكومة بتصور مثالي للحياة يحقق الانتصار المطلوب على قسوة الطبيعة. فأنهى القصيدة كما يجب أن تكون النهاية السعيدة في العقل العربي:[1]

وَطَاوِى ثَلاَثٍ عَاصِبِ البَطْنِ مُرْمِلٍ ... بِتَيْهَاء لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمَا

أَخِى جَفْوَةٍ فِيهِ من الإنسِ وَحْشَةٌ ... يَرَي البؤسَ فيها مِنْ شَرَاسَتِهِ نُعْمَي

وَأَفْرَدَ فِى شِعْبٍ عَجُوزًا إِزَاءَهَا ... ثَلاَثَةُ أَشْبَاحٍ تَخَالَهُمُ بَهْمَا

حُفَاةٌ عُرَاةٌ مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ ... وَلاَ عَرَفُوا لِلْبُرِ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا

رَأَي شَبَحًا وَسْطَ الظَّلاَمِ فَرَاعَهُ ... فَلَمَّا رَأي ضَيْفًا تَسَوَّرَ وَاهْتَمَّا

فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ ... أَيَا أَبَتِ اذْبَحْنِى وَيَسِّرْ لَهُ طَعْمَا

---

(١) ديوان الحطيئة ص٣٣٧.

www.mtenback.com

وَلاَ تَعْتَذِرْ بِالعُدْمِ عَلَّ الذى طَرَا ... يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوسِعُنَا ذَمَّا

فَرَوَّى قَلِيلاً ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً ... وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْهَمَّا

وَقَالَ : هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلاَ قِرَى ... بِحَقِكَ لا تَحْرِمْهُ تَالِلَّيْلَةَ اللَّحْمَا

فَبِيْنَاهُمَا عَنَّتْ عَلَى البُعْدِ عَانَةٌ ... قَد انْتَظَمَتْ من خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمَا

عِطَاشاً تُرِيْدُ المَاء فَانْسَابَ نَحْوَهَا ... عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى دَمِهَا أَظْمَا

فَأَمْهَلَهَا حَتَى تَرَوَّتْ عِطَاشُهَا ... فَأَرْسَلَ فِيْهَا من كِنَانَتِه سَهْمَا

فَخَرَّتْ نَحُوصٌ ذَاتُ جَحْشٍ سَمِيْنَةٌ ... قَدْ اكْتَنَزَتْ لَحْماً وَقَدْ طَبَّقَتْ شَحْمَا

فَيَا بِشْرَهُ إِذ جَرَّهَا نَحْوَ قَوْمِهِ ... وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَى

فَبَاتُوا كِرَاماً قَدْ قَضُوا حَقَّ ضَيْفِهِم ... فَلَمْ يَغْرَمُوا غُرْماً وَقَدْ غَنِمُوا غُنْمَا

وَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبَاً ... لِضَيْفِهِم والأُمُّ مِنْ بِشْرِهَا أُمَّا

أوردت القصيدة كاملة لبنائها الفني وارتباطها العضوي ولبيان الهاجس النفسي الذي جسده خيال الشاعر وقد أملت العادة الاجتماعية عليه القصة في كل تفاصيلها مع رسم كامل للجو العام الذي جعله مسرحاً لأحداث قصته، وأهمها تصوير عوز هؤلاء البائسين الفقراء العراة في فج منقطع من الأرض لايجدون الطعام لأنفسهم ولم يعرفوا الأنس بالبشر ولا التعامل مع الناس، وترك للقارئ التخمين فيما عسى أن يكونوا قد عاشوا عليه من الطعام. ومع كل ما رسم من صور مأسوية في حياة هؤلاء إلا أن الضيف الذي باغتهم في ليلهم الدائم نبه فيهم هماً آخر وحرك في الأسرة المنكوبة جبلة العربي وخلقه فالطعام للضيف لابد منه والقرى لا مندوحة عنه حتى لو بلغ بهم الأمر بتقديم أحدهم طعاماً له خروجاً من العار إن لم يجدوا غيره حيلة يطعمون بها ضيفهم، فجاءت القصيدة تحمل التأزم النفسي

www.mtenback.com

الحاد الذي حاق بهم برهة من الزمن بلغت حدَّ التمزق. ثم لاحت ملامح الانفراج حين ظهر أمام عينهم قطيع من حمر الوحش تتقدم إلى مورد الماء في غلس الليل فكانت الضحية من هذا القطيع وكان القرى لضيفهم والشبع لأنفسهم.

أما القصيدة الثانية أو القصة الثانية فتأتي على لسان الشاعر الراعي النميري وهي لوحة واضحة التعبير مكتملة الملامح قاتمة الأبعاد، وهي ليست خيالاً يصنعه الشاعر وتشكله عواطف الشعراء كسابقتها ولكنها حقيقة واقعة ومعاناة شخصية يعرف الرواة ظروف حدوثها ومناسبتها فبدأت القصيدة: (١)

عَجِبْتُ من السَّارِينَ والرِّيحُ قَرَّةٌ ... إلى ضَوْءِ نَارٍ بين فَرْدَةَ والرَّحَى
إلى ضَوْءِ نَارٍ يَشْتَوِي القِدَّ أهْلُهَا ... وقَدْ يُكْرِمُ الأضْيَافُ والقِدُّ يُشْتَوى
فَلَمَّا أتَونَا واشْتَكَيْنَا إلَيْهِمُ ... بَكَوْا وكِلاَ الحَيَّينِ ممَّا بِهِ بَكَى
بَكَي مِعْوَزٌ مـن أنْ يَلاَمَ وطَـارِقٌ ... يَشُدُّ منِ الجُوعِ الإزَارَ على الحَشَا
فَألْطَفْتُ عينِي هَلْ أرَى من سَمِينَةٍ ... ووَطَّنْتُ نَفْسي لـلْغَرَامَةِ والقِرَى
فَأبْصَرْتُهَا كَوْمَاءَ ذَاتَ عَرِيـكَةٍ ... هِجَاناً من اللَّآئي تَمتَّعْنَ بالصُّوَى
فَأوْمَأتُ إيْمَاءً خَفِيًا لِحَبْتَرٍ ... ولـلَّهِ عَيْنَا حَبْتَرٍ أيُّمَا فَتَى
وَقُلْتُ لَهُ ألْصِقْ بِأيْبَسِ سَاقِهَا ... فَإنْ يَجْبُرَ العُرْقُوبُ لا يَرْقَأ النَّسَا
فَأعْجَـبَنِي من حَبْتَرٍ أنَّ حَبْتَراً ... مَضَى غَيْرُ مَنْكُودٍ ومَنْصُلَهُ انْتَضَى
كَأنِّي وَقَدْ أشْبَعْتُهُم مـن سَنَامِهَا ... جَلَوْتُ غِطَاءً عـن فُؤَادِيَ فَانْجَلَى
فَبِتْنَـا وبَاتَتْ قِدْرُنَا ذَاتَ هِزَّةٍ ... لَنَا قَبْلَ مَافِيهَا شِوَاءٌ ومُصْطَلَى

(١) ديوان الراعي النميري ص١.

www.mtenback.com

وأصبَحَ رَاعِينَا بُرَيْمَةٌ عِنْدَنَا بِسِتِّينَ أنْقَتْهَا الأخِلَّةُ والخَلاَ
فَقُلْتُ لِرِبِّ النَّابِ خُذْهَا ثَنِيَّةً وَنَابٌ عَلَيْهَا مِثْلُ نَابِكَ فِي الحَيَا

لقد صور الراعي بؤس الحياة وقسوة الطبيعة ووحشة الصحراء ومبلغ الفقر في بعض الظروف حين يحطم الإنسان ويبيد قدرته فهؤلاء ركب يضربون في مفازات الأرض في ليلة شاتية باردة وقد أضرَّ الجوع بهم وبلغ بهم كل مبلغ فلجأ كل منهم إلى حجر صلد وشدة على بطنه لتخفيف ألم الجوع واسكان اضطراب الأمعاء الخاوية وبينما هم في حالهم تلك لاحت لهم نار تشب في ظلام الليل فاتجهوا إليها مسرعين. ولم تكن تلك النار لإقراء الضيف ولا طهي الطعام وإنما أوقدها حي نفد كل مايقوتون به أنفسهم ولم يجدوا إلا الجلود اليابسة يشوونها فيأكلونها ليقيموا أودهم. وما أعظم خيبة الركب وما أعظم مصيبة أهل الحي، بكى الركب من شدة الجوع ومرارة المسغبة وبكى أهل الحي خوف العار والفضيحة إن لم يخرجوا من أزمتهم بمخرج يقيهم الشتم واللوم.

بَكَي مِعْوِزٌ مِنْ أنْ يُلاَمَ وَطَارِقٌ يَشُدُّ من الجُوعِ الإزَارَ على الحَشَا

ولكي يخرج من مأزق الواقع الذي فرض عليه اختلس النظر إلى ركاب الضيف فرأى ماينهض بالحاجة العاجلة فأمر بنحر إحداها لهم على أن يقوم بالعوض مضاعفاً في الوقت المناسب، وماذا عليه عندما يضمن لصاحب الناب كما يقول ناباً حاضرة وناباً أخرى بعد حين.

إنها الحاجة التي تأتي بحلولها التلقائية فتضطر الكريم إلى التصرف السريع وماذا عليه بعد ذلك وإن كان المغرم عظيماً. وقد سلم الراعي من

www.mtenback.com

هجاء الضيف ولكنه لم يسلم من هجاء بني عمه الذين عيروه بعقره ناقة ضيفه. فأفحمهم وأسكتهم وأمتنّ عليهم بأنه قرى أمهم مع ضيفه. وأخبرهم بالعوض الكبير والثمن الرابح الذي قدمه لصاحب الجزور:(١)

وَمَاذَا ذَكَرْتُمْ مِن قَلُوصٍ نَحَرْتُهَا بِسَيْفِي وَضَيْفَانُ الشِّتَاءِ شُهُودُهَا

فَقَد عَلِمُوا أَنِّي وَفَيْتُ لِرَبِّهَا فَرَاحَ عَلَي عَنْسٍ بِأُخْرَي يَقُودُهَا

قَرَيْتُ الكِلابِيَّ الذي يَبْتَغِي القِرَى وَأُمَّكَ إِذْ تَخْدِي إِلَيْنَا قَعُودَهَا

رَفَعْنَا لَهَا نَاراً تُثَقِّبُ لِلْقِرَي وَلَقْحَةَ أَضْيَافٍ طَوِيلاً رُكُودُهَا

إن المتأمل في هاتين القصيدتين يدرك قيمة الفخر الذي أظهره العرب في الكرم ويعرف ما وراءه وليس أبلغ في وصف حياتهم منهما، فالوجبة تعادل الحياة وتساوي قناطير الذهب، وماذا يفعل من لايجد الطعام حتى لو ملك الدنيا إذا كان لايتوفر فيها مايقيم حياته من أسباب البقاء. فالمال قيمته بسداد الحاجة وانفاقه بالمعروف ولولا ذلك لاستوى حال الأغنياء والفقراء ولم يوجد سبب للاستمتاع بفضول المال وجزيرة العرب ليس فيها بخل لكن فيها عوز وفقدان للشيء يجعل أجود الناس في بعض المواقف أشد البُخلاء لابطبعه بل بطبيعة الصحراء التي لاتهبه شيئاً يجود به أو ينفقه فيبقى بخيلاً رغم أنفه كما وصفها الصمّة القشيري:(٢)

لَحَا اللَّهُ نَجْداً كَيْفَ يَتْرُكُ ذَا النَّدي بَخِيلاً وَحُرَّ القَوْمِ تَحْسَبُهُ عَبْدَا

إن البخل ليس من طبيعة العرب ولكن العوز من طبيعة بلادهم وإذا بخلت وقلّ خيرها واستطاع المرء أن يتغلب على بخلها وشح مواردها حق

---

(١) ديوان الراعي النميري ص٩١.

(٢) ديوان الصمة القشيري ص٦٠.

www.mtenback.com

له الفخر بما فعل وحق لغيره مدحه وذكر مآثره ولولا هاتان الخصلتان لما اقتحم الجواد المتاعب ومشقات الحياة وصعوبات الطبيعة التي لاتقهر في بعض الأحيان إلا بذهاب النفس والمال معاً.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

خدمة الضيف

أما الملمح الثاني بعد عملية استقبال الضيف والبشاشة له فهو خدمته بعد وصوله وبعد نزوله فى الحي وقد مرَّ في مقدمة البحث من مأثور العرب عن خدمة الضيف شيء يدل على اهتمامهم به وأنها شرف يقوم به كل منهم، كائناً من كان ولابد أن يكون للشعر رأيه في المعنى المأثور عندهم، وللشعراء مواقفهم من الضيف وخدمته والعناية به عندما يحل فيهم ويصبح مقيماً في حيهم وقد وجدنا الشعراء يعطون هذا الجانب حقه من الاهتمام ويوشحونه بلغة عاطفية جميلة ويرون أن خدمته مبلغ الكرم وأن حبهم له مبعث فخرهم فيقول هذلول بن كعب العنبري :(١)

لَعَمْرُ أَبِيكِ الخَيْرُ إنـــــي لَخَادِمٌ لِضَيْفِي وَإنِّـي إنْ رَكِبْـتُ لَفَارِسُ
وَإنِّي لأَشْرِي الحَمْدَ أَبْغِي رِبَاحَهُ وَأَتْرُكُ قِرْنِي وَهْوَ خَزْيَانَ نَاعِسُ

أما صاحب الأغاني فينسب شعراً إلى سيد تميم قيس بن عاصم وهو من هو في قومة تميم سيادة ومروءة وشعراً أيضاً. يفخر بخدمة الضيف ويقول:(٢)

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِالـــــــلَّهِ وابْنَةَ مَالِكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِي البُرْدَيْنِ والفَرَسِ الوَرْدِ
إذَا مَاصَنَعْتِ الـزَّادَ فَالْتَمِسِـي لَهُ أَكِيلاً فَإنَّـــي لَسْـــتُ آكَلَهُ وَحْدِي

---

(١) الحماسة ص٧٠.

(٢) الاغاني، جـ١٤ ص٦٨.

www.mtenback.com

أخـــاً طَارقـــاً أوْ جَارَ بَيْتٍ فَإنَّنِي أخَافُ مَلاَمَاتِ الأحَادِيْثِ مِـنْ بَعْدِي
وَإنِّى لَعَبْدُ الـضَّيْفِ مِـن غَيْرِ ذِلَّةٍ وَمَا بِـيَ إلاَ تِلْكَ مِنْ شِيَمِ الـعَبْدِ

وعند المقنع الكندي مثله:(١)

وَإنِّي لَعَبْدُ الـــضَّيْفِ مَادَامَ نَازِلاً وَمَاشِيْمَةٌ لي غَيْرُهَا تُشْبِهُ الـعَبْدَا

وهدبة بن الخشرم العذري يصف القيام على أضيافة وحنانه عليهم ولطفه بهم فيقول:(٢)

يَنَفِّضُ عَـــن أضْيَافِهِ مَايَرَى بِهِمْ رَحِيْمَانِ سَاعَ بِـالـــطَّعَامِ وَلاَحِفُ
كَأنْ لَمْ يَجِدْ بُؤســـاً وَلاَ جُوعَ لَيْلَةٍ وَفِى الخَيْرِ وَالمَعْرُوفِ للضُّرِ كَاشِفُ

ويصف جرير المعنى المطروق للشعراء في خدمة الضيف وإكرامه وتحسس حاجاته فيقول:(٣)

كَمْ قَدْ نَزَلْتَ بِكُمْ ضَيْفـــاً فَتَلْحِفُنِي فَضْلَ اللِّحَافِ وَنَعْمَ الفَضْلُ يُلْتَحَفُ

ويقول شبيب بن البرصاء: إن لذة النوم وغشيان النعاس لعينه لاتمنعه من إجابة الضيف والقيام مسرعاً لاستقباله:(٤)

لَقَدْ عَلِمَتْ أمُّ الـــصَّبِيِنِ أنَّنِـــي إلـى الضَّيْفِ قَوَّامُ السِّنَاتِ خَرُوجُ

ويجعل الراعي النميري الضيف والبنين الأصاغر عنده في منزلة سواء، يقوم عليهم ويعتني بهم ويشبه عنايته بالضيف بعنايته بأبنائه فيقول:(٥)

بِجُـرْدٍ عَلَيْهِـنَّ الأجِلَّـةُ سُوِّيَـتْ بِضَيْفِ الشِّتَاءِ والـبَنِيْنَ الأصَاغِرِ

---

(١) بهجة المجالس ص٢٩٩.
(٢) شعر هدبة الخشرم ص١١٢.
(٣) ديوان جرير ص١٧٤.
(٤) النوادر ص١٨٠.
(٥) ديوان الراعي النميري ص١٣٤.

www.mtenback.com

على من تجب الضيافة

لابد والبحث يسوق الحديث عن مجمل صورة الضيافة العربية أن نعرج على تعدد حالات الضيافة ومكانها والقائمين عليها، وقد أجمعت النصوص على فردية الضيافة، وقيام رب المنزل بواجب الضيف وحده دون أن يستعين على ذلك بأحد أو يطلب المساعدة في ما يقدم من قرى الأضياف مهما كانت الحاجة إلى عونهم، ولم يعرف أو لم نعرف نحن من عاداتهم القرى الجمعي في الجاهلية إلا في حالة واحدة هى الرفادة وهى مأثرة من مآثر قريش خاصة عرفت فيهم دون غيرهم من أحياء العرب وقبائل الجزيرة، والرفادة كانت في أصلها تقديم الطعام للحجاج أو ضيافة الحاج في الموسم وكانت واجبة على أهل مكة بصفتهم أهل الحرم أو أهل الله كما تقول العرب. ومن الطبيعي أن لاينهض مال لأحد من قريش بضيافة الحجاج ولن يفي كل قرشي في مكة بواجب الضيافة الخاصة أو الفردية، فألجأتهم الحاجة إلى أن يحتالوا للأمر فاجتمعوا على رأي أكسبهم الثناء والاحترام عند العمار والحجاج ورفع من شأن قريش في نفوس الناس إذ أجمعوا على الرفادة وهي أن يخرج كل رجل منهم مالاً بقدر طاقته فيجمعون المال كله في يد أحدهم فيشتري به للحجاج الجزر والطعام والزبيب والنبيذ فيسقون الناس ويطعمونهم حتى تنقضي أيام الموسم.[1] وجعلوا من يقوم على الرفادة أشرف بيوت قريش.

---

(١) لسان العرب مادة «رفد».

www.mtenback.com

ولم يذكر عن العرب ولا في عاداتهم أنهم يقبلون عوضا عما يقدمون للضيف من ضروب الإكرام والقرى مهما كان المضيف فقيراً، وهم يعدون فعل ذلك منقصة ولؤما يعير به من يحاول تعويض العربي عما قدم لضيفه من الطعام.[1] وقد يكون الضيف غنياً والمضيف فقيراً فيتحمل الفقير مؤنة الضيف الغني، وقد روت العرب في بعض قصص الضيافة أن وفداً من وجهاء قريش كانوا في الطريق إلى الشام فاضطروا للتوقف عند عربي لايملك إلا عنزاً وله زوجة وبنات يقتاتون لبن العنز فقام إليها وذبحها لضيوفه على الرغم من اعتراض زوجته وتهديدها بهلاك بناته إن فعل، فكان رده أن الموت عنده أهون من حرمان الضيف أو البخل عليه، وقد تكون الحاجة والفقر أقوى من حيلة العربي الجواد ولهذا السبب جاء المثل «لم يحرم من فصد له»[2] والمثل يتفق مع الأعراف العربية في الضيافة وهو أن الضيف لابد أن ينال قرى مهما كان قليلاً إذا حلَّ في حي من الأحياء. وعندما لايجد رب المنزل مايقدم له البتة في البيت ولاتوجد السائمة التي يطعمه لحمها. فإنه يعمد إلى راحلة الضيف وهو لايملكها ولايستطيع ذبحها فيفصد عروقها ويستخرج بعض دمها فيطبخه للضيف تعذيراً باطعامه وأنه لم يحرم. وقد كان هذا عندهم في الجاهلية حتى حرم الإسلام الفصيد والدم. وقد ينحر ناقة الضيف له فيطعمه لحمها ويعده العوض بعد ذلك كما مضى في النصوص الشعرية. وقد بدأت الصورة المشرقة والمثالية المتناهية تغطي جانباً من الشعر ويقدم الشعراء كماً كثيراً

---

(١) انظر كتاب الكرماء ص٢٥.

(٢) لسان العرب مادة «عضد».

www.mtenback.com

من المدائح لأنفسهم وللآخرين على ضوء الدلالة الإجتماعية لقرى الأضياف والقيام بخدمتهم. وهي الوجه الأول الظاهر في الآداب العربية والفخر العربي والمعنى الذي تؤكده المعارف ويعززه الشعر ويرشحه في الأذهان الاتفاق على تقديس الكرم واحترام خصال المروءة.

أما الصورة الأخرى فستوجدها الضرورة عندهم وتعرف في آدابهم وينظر اليها من زواية أخرى ضيقة مظلمة متوارية تلك هي صورة الشح والبخل والحرمان للضيف وهي صورة سوداء كالحة في نظر العرب وفي وصف الشعراء ولولا هذه الصورة القاتمة لما تميز إشراق الصورة الأولى ولا ظهر بريقها ولما ساغ الفخر الذي تجاوز حدود المعقول. ومادام الحديث عن الضيافة فسيكفي إيراد المثل من وجه الصورة التي نزعم وجودها على الرغم مما يحاول الشعراء إخفاءه وإبعاده عن دائرة الضوء ومساقط الإشراق فإذا كانت الصورة الأولى هي صورة أريحية الجواد الذي يوقد النار لهداية الضيف وينشط لقراه فإن الصورة الأخرى تجسم منظر ذاك الذي إذا نزل به ضيف مرة من الزمان ودّ ألا يراه مرة أخرى في حياته ولايحب أن يعود إليه قط. وقد اتخذ هذا الصنف من الناس وسائل تبعد الضيف عنهم وتحول بينهم وبينه فجاء في بعض مأثورهم أن من عادة بعضهم إذا رحل الضيف عنهم وأحبوا ألا يعود إليهم كسروا شيئاً من الأواني[1] بعده رجاء أن يقيهم ماكسروا مؤنته مرة أخرى فلا يرونه عندهم ثانية وقد لاتنفع هذه الرقية المشؤومة فيعود الضيف وقد ذهب المتاع الذي كسر ومن لطيف

(١) بلوغ الأرب في معرفة جـ٢ ص٣٣١.

www.mtenback.com

قولهم في هذا المعنى :

كسرنا القدرَ بعدَ أبي سواحٍ فعادَ وقدرُنا ذهبتْ ضياعا

وقال آخر يعير من يفعل ذلك ويعرض به ويزعم أنه أكرم منه:[1]

ولاَ نكسرُ الكيزانَ في إثرِ ضيفِنا ولكنَّنا نكفيه زاداً ليرجعا

ويقول شاهد ثالث:[2]

أما واللَّهِ إنَّ بَني نُفَيْلٍ لَحلاَّلونَ بالشَّرَفِ اليَفاع

أناسٌ ليسَ تكسرُ خلفَ ضيفٍ أوانيهمْ ولاَ شعبَ القصاع

وقدظهر من شطحات أمثالهم وما تفلت على ألسنتهم بعض مايدل على بخل بعض الرجال ولؤمه، فجاء المثل المشهور «أبى الحقين العذره» ومناسبته فيما ذكر أبوزيد أن رجلاً ضاف قوماً فاستسقاهم لبناً وعندهم لبن قد حقنوه في وطب فاعتلوا عليه واعتذروا فقال «أبى الحقين العذره» فذهب كلامه مثلاً.[3] وقد يقابل استثقال الضيف عند بعضهم جشع من الضيف ومحاولة الإستزادة أكثر مما يستحق وتكليف المضيف وجبة إضافية وزاداً ليوم قادم فكان المثل الآخر «أعن صبوح ترقق»[4] وهو أن رجلاً ضاف حياً من العرب فلما غبقوه قال لهم غداً إذا صبحتموني كيف أخذ بحاجتي فقالوا «أعن صبوح ترقق» وقالوا أيضاً «الأم من راضع» وهو مثل مما له علاقة بالضيافة والقرى يعبر عن بخل بعضهم وشحه على الضيف

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة جـ٢ ص٣٣١.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة جـ٢ ص٣٣١.

(٣) مجمع الأمثال جـ١ ص٤٢.

(٤) مجمع الأمثال جـ٢ ص٤٢.

www.mtenback.com

ومحاولة حرمانه، ويقول الفراء: إن مناسبته: أن الراعي لايكون معه محلب ولايمسك قعباً فإذا جاء معتر وسأله القرى اعتل بأن ليس معه محلب وإذا رام هو الشرب رضع.

كل الأمثال السابقة التي تفلتت من ثنايا الحديث واطراد الانكار للبخل والحث على اكرام الضيف تزيد وجهة النظر وضوحاً وتجعلها قابلة للمناقشة على مبدأ ماجبل عليه الإنسان وما ركب في طبعه وما يتفق مع غرائز الذات التي جبلت على حب المال وحب الشرف وحب الفخر وكسب المكانة المرموقة في المجتمع وإرضاء الغرور الإنساني بما يلقى من الرضى وما يسمع من الحمد والثناء لكن الثمن عظيم ومقابله واسع والأخذ به أشد من قلع الأضراس وآلم على بعض النفوس من وخز الإبر وسوف يسوق الشعر أدلة أمام يديه ومن خلفه تهدي إلى معالم الطريق في حياة سكان الجزيرة العربية وترصد خطرات نفوسهم وتصور ملامح حياتهم التي وصفوا فيها نماذج العادات الاجتماعية دون تكلف في مواقف العطاء. على أن كل ما لدي قبائل العرب من عادات لن يسهل تتبعه ولامطلبه ولايقوم سبيله في نموذج واحد أو فكرة شائعة ولكن مع الأناءة والنظر الدقيق قد يتشكل وجه مقبول من وجوه الجدل المعقول حول عادة الضيافة وكرامة الضيف. وسننتقي من الشعر مايجعلنا نمرُّ معه في حركة الوجدان العربي ونفتش في خبايا النفوس ونكشف طوايا المضمر ونصل إلى مواقع المستكن وما قد يحرك الراكد وينطق الصامت من معاني الحياة ونختار ما أيده الحال ودل عليه المقال. وإذا نطق الشعر وأخذ في الحديث

www.mtenback.com

المسترسل والوصف المسهب عن المعارف عندهم فسيجد القارئ أمامه متسعا للنظر وامكانية معقولة للتمييز بين الحقيقة والخيال والممكن والمستحيل وذلك ما سوف يترك لتقدير المتابع واستنتاج القارئ لما سيقرأ من أبيات الشعراء الفاخرين الذين يزعمون أنهم يؤدون ضروباً من الكرم لايكاد يصدقها السامع ويجسمون ضروباً أخرى من بخل الباخلين تصل إلى عدم التصديق أيضاً.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفخـــــر

يأخذ الفخر عند العرب حيزاً متميزاً في معارفهم العامة ويصور الواقع ويبالغ في تصويره حتى تصبح المبالغة إحدى الركائز التي يقف عليها الشاعر ويطورها عندما يعرض للقيم الاجتماعية التي يحرصون عليها، وسنحاول تتبع شعرهم الذي يتحرك في وجدانهم ويتكيء على أسس الوعي الجماعي للقيم المطلوب نشرها واتساع دائرة التعامل بها. والضيافة إحدى محاور القيم العظيمة عندهم التي تنتج تجربة شعرية رائعة لاتنفرد في مسارها عن أسس العادات العربية. بل تؤسس الجدل المعقول وتأخذ المتفق عليه في مصادر المعرفة والثقافة المطلوب إتباعها حتى يتضح الواقع الاجتماعي ويذهب في مسارات الأفق ويؤثر في مستقبل الأجيال تأثيراً بعيداً. وقد جاء تكثيف المأثور الأدبي لكي تسرع حركة الحياة وتتشكل صورة المعرفة ويحسن التعامل مع أبجديتها فتتسع دائرة الثوابت في الثقافة الأولى التي بلورت منهجاً أخلاقياً متميزاً وأرست دعائم الانطلاق للقيم الاجتماعية المقبولة وهنا يكون الفخر بالضيافة ضرباً من تحقيق الذات وعملاً لتوسع دائرة الفضائل وتعليم السمو للفرد والجماعة حتى تتم في هذا السبيل عملية النشر لما يود المرء الكريم أن يراه سائداً في مجتمعه. وليست آراء الشاعر مجرد حاجة طارئة للتعبير عن حركة انفعال فردي أو محاولة لتحقيق التميز في معاني القول واستمرار الذكر الحسن الذي

www.mtenback.com

يسجله الشعر الأخلاقي والشعر المعرفي، على أن قيمة الشعر الأولى عند العرب أخلاقية كقولهم «إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب»[1] ومعرفية كما في مأثورهم «الشعر ديوان العرب». وهي قيمة أخلاقية في تعبيرها عن الأغراض والسلوك المقبول اجتماعياً، ومعرفية، في رصدها للماضي وتسجيلها للحاضر.

والشعر العربي في مراحل تطوره الأولى يقوم على عملية الإيحاء عندما يبدأ الشاعر بالابداع الذي يسمح بالتكوين الصحيح سلوكياً فيصبح استقطاباً للآخرين. وبعد ذلك يجيء دور التمثل والإقتداء لدى المنشدين والمرددين له آخذين دلالات الإعجاب والاندهاش بتلك القدرة الذاتية الفاعلة القادرة على تسجيل الواقع واجترار الإرث الرتيب من الحياة ثم التقليد لفضائل الأعمال.

أما الفخر وهو ماينطبق عليه المعنى الشامل للشعر فإن خصوصيته تأتي من عملية الاستبطان الذي يتجه إلى الواقع ويأخذ في تشكيل البيئة الاجتماعية من الداخل ويصور مايود المبدع تحقيقه لنفسه إن لم يستطعه عملاً حاول الظهور باستطاعته قولاً وأقنع الراوي والمنشد بقدرتهما على ترشيح النفوس المتلقية لمحاولة الاستطاعة. وأصبح الترديد للمفاخر ظاهرة قولية تتكيء على الشعر الموروث وتفخر بصورة المروءة وهي محكومة بحتمية التجاوب الواعي لمدلولاتها المقدسة في أعراف العرب وإثارة شعور الإعجاب والدهشة لدى الناس لحسن ما يأتي به المبدع من فنون القول

---

(١) العمدة ص٢٧.

www.mtenback.com

الذي يعرضه متبصراً متخيراً فيأخذ الجانب الحيوي الايجابي الذي يريد نشره في مجتمعه ويرفض الجانب الراكد السلبي الذي يحب أن يراه منقرضاً من المجتمع فيثبت وينفي ويعمل بطبيعته وفطرته في رفع مستوى التعامل ويفتح للشعر بلاغة اللغة المؤثرة فتجسد مكارم الأخلاق وتعطي السماحة حظاً وافراً من التقبل عندما يحتاج الشاعر مواصلة الانطلاق البعيد إلى الغاية المرجو تحقيقها والسبق إليها وقد تجاوز الشعر في عصوره الأولى الوقوف أمام الملاحظات الجزئية الصغيرة التي تعترض طريقه حين كاد الشاعر أن يلغيها أو يتجاهل وجودها إن وجدت لكي يثير تجاوزه أزمة الرتابة والملل من بطء السير في حركة الحياة والمجتمع الذي يحس أنه راكد بطيء الخطوات لايتزحزح إلا في دائرة الانغلاق والتردد، فمال طبع الشاعر إلى المبالغة والتجاوز الواعي حتى ينبه الاحساس العام ويعاد النظر في الجزء المقبول من المبالغة فتحدث لدى المستمع عملية النشاط الذهني المطلوب حتى تظهر حاجة التوفيق بين حقيقة مايعرف المتلقي وتجاوزات المبالغة البعيدة عن الواقع المعاش الذي يمكن حدوثه وتصوره. وحسب الشعر والشاعر إحداث الصدمة الذهنية الأقوى ثم التحرك بعيداً عن دائرة الاضطراب حتى تثير مفردات اللغة علامة الاستفهام لديه فيحكم في وعيه دلالات المبالغة ويصور قبوله أو رفضه. وبين عملية الرفض والقبول يحقق الشعر أغراضه وتتم الاستجابة العاطفية ويحدث موقف وسط بين المبالغة لمتخيلة والحقيقة الماثلة أمام الناظرين ولاشك أن شعر الفخر حظه من الاستجابة الأولى كبير ونصيبه منها وافر، وأن شعر الهجاء والثورة على الواقع المرفوض وقبوله اجتماعياً، حظه كبير ونصيبه وافر أيضاً. وهناك

www.mtenback.com

منطقة وسط يبدأ عندها تشابك الحقيقة مع الخيال والمبالغة مع الواقع فلا تنتهي بخط فاصل لكنها تأخذ حيزاً معقولاً ومساحة ممكنة يمتزج فيها الخيال مع الحقيقة ويكون كله في دائرة التداخل وفي حكمها فيقبله العقل في حدود المتعارف عليه والمألوف في العادة ثم يبدأ تميز المبالغة وغلبتها وتلاشي الحقيقة واختفائها في صعود منطقي الحركة وفي نقطة الامتزاج والتداخل بين الحقيقة والخيال وبين المعرفة والادعاء تقوم الموازنة المطلوب توفرها.

إن البحث بعد هذه التوطئة سيدلف في وجدان الشعراء العرب والشعر العربي عندما يتحدثون عن أسس حياتهم ومنها الضيافة التي سيأخذ نصيبها من الشعر ومن مبالغات الشعراء حيز البحث كله. محاولاً الابتعاد قليلاً عن نمطية الطبيعة التي أنتجت الشعر ومبقياً معنى الشعر أداة توصيل للعادات السائدة والفهم الحي لمواضعات المجتمع. وسيبدأ البحث باستعراض نماذج الشعر وخيارات الشعراء عندما يغرقون في وصف ذاتي لمعاني الجود والكرم وما يواجه الكريم من لوم المشفقين وتذمر الأقربين كما يقول حاتم الطائي:(١)

وَقَائلَـةٍ أهْلَكْتَ فـي الجُودِ مَالَنَا ... وَنَفْسَكَ حـتي ضَرَّ نَفْسَكَ جُودُهَا
فَقُلْتُ دَعِينِـي إنَّمَـا تلـك عَـادَةٌ ... لِكُـلِ كَرِيـمٍ عَـادَةٌ يَسْتَعِيـدُهَا

ويقول:(٢)

فَلُومِينِـي إذَا لَـمْ أقْـرِ ضَيْفِـيْ ... وَأكْـرِمُ مُكْرِمِـيْ وَأهِـنْ مُهِينِـيْ

(١) ديوان حاتم الطائي ص١٨٧.
(٢) ديوان حاتم الطائي ص١٦٠.

www.mtenback.com

ومثل ذلك المعنى يرد على لسان ذي الرمة فيقول:(١)

أعَاذِلَ غُضي من لِسَانِكِ عن عَذْلي ... فَمَا كُلُّ من يَهْوَي رَشَادي على شَكْلِ
فَمَا لاَمَ يَوْماً من أخٍ وَهْوَ صَادِقٌ ... إخَائي وَلاَ اعْتَلَّتْ على ضَيْفِهَا إبْلي
إذَا كَانَ فيها الرَّسْلُ لَمْ تَأتِ دُونَهُ ... فِصَالِي وَلَوْ كَانَتْ عِجَافاً وَلاَ أهْلي
وَإنْ تَعْتَذِرْ بالمَحْلِ من ذي ضُرُوعِها ... علي الضَّيْفِ يَجْرَحْ في عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي

وعلى الرغم من روح التقبل لعذل المرأة المشفقة عليه وعلى نفسها معه إلا أن مبررات الانفاق والضيافة أقوى من عوامل التفهم لموقف العاذلة ورحمتها به ورفقها عليه لاسيما إن كان ذلك إرثاً يحيي به مجداً سالفاً ويذكر به أباءً كراماً لايجوز أن يقصّر دون مجدهم أو يسيء بفعله وبخله إلى سمعتهم التي مضت مع الأيام كما يقول عبيد بن عبدالعزى السلاماني:(٢)

وَعَاذِلَةٍ فَادَيْتُهَا أنْ تَلُومَنِي ... وَقَدْ عَلِمَتْ أنِّي لَهَا غَيْرُ مُوْثِرِ
عِلِى الجَارِ والأضْيَافِ والسَّائِلِ الذي ... شَكَا مَغْرَماً أوْ مَسَّهُ ضُرُّ مُعْسَرِ
أعَاذِلَ إنَّ الجُودَ لا يُنْقِصُ الغِنَى ... وَلاَ يَدْفَعُ الإمْسَاكُ عن مَالِ مُكْثِرِ
أَلَمْ تَسْأَلِي وَالعِلْمُ يَشْفِي من العَمَى ... ذَوِي العِلْمِ عن أبْنَاءِ قَوْمِي فَتُخْبَرِي
سَلاَمَانَ إنَّ المَجْدَ فِينَا عِمَارَةٌ ... عَلَى الخَلْقِ الزَّاكِي الذي لَمْ يُكَدَّرِ
بَقِيَّةُ مَجْدِ الأوَّلِ الأوَّلِ الذي ... بَنَى مَيْدَعَانُ ثُمَّ لَمْ يَتَغَيَّرِ
أولَئِكَ قَوْمٌ يَأمَنُ الجَارُ بَيْنَهُم ... وَيُشْفِقُ من صَوْلاَتِهِم كُلُّ مُخْفِرِ
مَرَافِيدُ للمَوْلَى مَحَاشِيدُ للقِرَى ... على الجَارِ والمُسْتَأنِسِ المُتَنَوِرِ

---

(١) ديوان ذي الرمة ص١٥٥.

(٢) قصائد جاهلية ص١٣٢.

www.mtenback.com

وهو أمر مألوف أن يجعل الشاعر عذل المرأة عامل تثبيط عن الجود والكرم خوفاً عليه من الاملاق وعلى نفسها من العوز الذي يدفع إليه في رأيها تصرف الرجل الجواد ولكن لومها يقابل بالعصيان والاصرار على الإنفاق طلباً للباقي من الذكر الحسن والثناء المستمر كما يقول حاتم الطائي:(١)

وَإِنِّـي لاَ آلُـو بِمَـالٍ صَنِيْعَـةً فَأَوَّلُـهُ زادٌ وَآخِـرُهُ ذِخْـرُ

ولابد والحديث عن النفس والضيافة والجود أن يشفع بخصال الشجاعة وهي الجانب الأقوى المتمم للكمال في ذات المرء الذي يبحث عنه ويوسع دائرته في اطراد متناسق يكمل الجود والكرم بالشجاعة والإقدام فيقول:(٢)

وَإِنِّي لأُقْرِي الضَّيْفَ قَبْلَ سُؤَالِهِ وَأَطْعَنُ قِدْمـاً وَالأَسِنَّةُ تُرْعِفُ

ويجيء الميسر في شتوات الليالي جزءاً من تقاليد المروءة ومذهباً من مذاهب الإنفاق يتعلل به الكريم المضياف عندما لايجد سبباً لإطعام الناس أو عندما يود أن يظهر جزءاً من تقاليد القبيلة في محفل مشهود يقوم فيه الجمع على أيسار الجزر يتسابقون إلى الحظ الذي يواتي نصيبه وكسبه فلا يكون للنفس أو الأهل ولكنه يذهب إلى فئات من أهل الحاجة يحددهم لبيد العامري ومنهم الضيف:(٣)

وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا بِمَغَالِـقٍ مُتَشَابِـهٍ أَجْسَامُهَـا
أَدْعُو بِهِـنَّ لِعَاقِـرٍ أَوْ مُطْفِـلٍ بُذِلَتْ لِجِيْـرَانِ الجَمِيْـعِ لِحَامُهَـا
فَالضَّيْفُ وَالجَارُ الجَنِيْبُ كَـأَنَّمَا هَبَطَا تَبَالَةَ مُخْضِبـاً أَهْضَامُهَا

---

(١) ديوان حاتم ص٢١٣.

(٢) ديوان حاتم ص٢٢٣.

(٣) ديوان لبيد العامري ص٣١٨.

www.mtenback.com

ويقول عن أبيه :[1]

وَجَدتُ أَبِيْ رَبِيْعـــــاً لِلْيَتَامى وَلِلأَضْيَافِ إِذْ حُبَّ الـــــــفَئِيْدُ

وعن نفسه يقول :[2]

ومـــدَّفَّعٍ طَرَقَ النَبُوحَ فَلَمْ يَجِدْ مَـأوَى وَلَـمْ يَـكُ لِلْمُضِيْفِ سَوَامّ
آوَيْتُهُ حـــــتى تَكَفَّتَ حَامِداً وَأَهَـلَّ بَعْـدَ جُمَـادِيَيْنِ حَـرَامُ

وحاتم الطائي لابد أن يعود إليه الحديث مرة بعد أخرى كلما ذكر الكرم والجود والفخر بهما فيقول :[3]

وَإِنَّا لـــــــنُطْعِمُ أَضْيَافَنَا مِـن الـكُومِ بِـالـسَّيْفِ نَعْتَامُهَا

ويقول عبدالله بن رواحه في شعره :[4]

وَقَدْ عَلِمَ الـــقَبَائِلُ غَيْرَ فَخْرٍ إِذَا لَـمْ تُلْـفِ مَاثِلَـةً رَكُـودَا
إِذَا مَا وَاجِبُ الأَضْيَافِ أَمْسَـى وَكَانَ قِرَاهُمُ غَثّـــــاً فَصِيْدَا
بِأَنَّا نُخْرِجُ الـــــشَّتَوَاتِ مِنَّا إِذا مـا اسْتَحْكَمَتْ حَسَبـاً وَجَوْدَا

ويفعل حسان بن ثابت الشيء نفسه[5] ويؤكد فخره بالضيافة واعتداده بنفسه وقومه بالكرم والجود واحلال الضيف الطارق محلا من التوقير والاحترام فلا تدفعه الأيدي ولايبعد عنه الخير ثم يشرك جاره مع ضيفه فيقول :[6]

وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ إِنْ جَاءَ طَارِقـاً من الشَّحْمِ مَا أَضْحَى صَحِيْحـاً مُسَلَّمـاً

---

(١) ديوان لبيد العامري ص٤٠.
(٢) ديوان لبيد العامري ص٢٨٩.
(٣) ديوان حاتم الطائي ص١٧٧.
(٤) ديوان عبدالله بن رواحه ص١١٨.
(٥) ديوان حسان ص٤٢٧.
(٦) ديوان حسان ص٤٢٧.

www.mtenback.com

ويقول :[1]

وَلاَ ضَيْفُنَا عِنْدَ الـــقِرى بِمُدَفَّعٍ وَلاَ جَارُنَا بِالـــنَّائِبَاتِ بِمُسْلَمِ

ويأخذ عامر بن الطفيل المعنى المشترك للشعراء والمهيع المطروق فيقول:[2]

إذَا سَنَـــةٌ عَـــزَّتْ وَطَـــالَ طُوَالُهَا وَأَقْحَطَ عَنْهَا الـقَطْرُ وَاصْفَرَّ عُودُهَا

وُجِدْنَا كِرَامـــــاً لايَحُوَّلُ ضَيْفُنَا إذَا جَفَّ فَوقِ المُنْزِلاَتِ جَلِيـــدُهَا

ويقول :[3]

إنَّا لَنَعْجَلُ بِالـــــعَبِيطِ لِضَيْفِنَا قَبْلَ الـــــعِيَالِ وَنَطْلُبُ الأَوْتَارَا

ويذكر ابن مقبل أن الضيافة حق للضيف ويدعي أنه يقري ضيفه أطايب الجزر ويختار له السنام كناية عن اجتيازه للضعيفة من الإبل والهزيلة فيقول:[4]

وَنُطْعِمُ الضَّيْفَ مَعْبُوطَ السَّنَامِ إذَا أَلْوَتْ رِيَاحُ الشِّتَاءِ الهُوجُ بِالخَطَرِ

وفي موقف آخر يقول :[5]

فِي دَارِ حيٍّ يُهِينُونَ اللِّحَامَ وَهُمْ لِلْجَارِ وَالـــضَّيْفِ يَغْشَاهُمْ مَكَارِيمُ

وفي المساق الاجتماعي نفسه يجعل أسامه بن جندل الضيف الغريب باعث فخر واعتزاز فيحييه ويسعد به ويزعم أن جارهم مثل ضيفهم منعم عليه محفوف بالفضل لايبخلون عليه ولايستثقلون بقاءه ونزوله بينهم

---

(١) ديوان حسان ص٤٥١.

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ص٤٦.

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ص٧٨.

(٤) ديوان ابن مقبل ص٩٠.

(٥) ديوان ابن مقبل ص٢٧٥.

www.mtenback.com

فيقول :[1]

قَدْ يَسْعَدُ الجَارُ وَالضَّيْفُ الغَرِيْبُ بِنَا والسَّائِلُونَ وَنُغْلِي مَيْسَرَ النَّيْبِ

ويرى سراقة البارقي أن إبله مقسمة بين حاجة ابن عمه وقرى ضيفه فيقول:[2]

وَأَقْرِضُهَا ابْنَ عَمِّيْ إنْ أَتَانِي وَأَقْرِي الضَّيْفَ أَعْظَمَهَا سَنَامَا

ثم يتكرر في كل شعر فاخر ذكر الناقة الميسر والناقة الجزور والسنام المعبوط والبرك الهواجد والضيف الذي يطرق فيفرح به الكريم الجواد وتذعر منه الإبل حتى شاعت هذه المفردات في لغة الشعر الذي يصف كرم المضيف وجوده فيغالي في مدحه ويحترمه ويدأب على احترامه ويذيع بين الناس فضائله ويبعد به في بعض الأوقات عن الواقع حتى أصبحت مفردات المدح بالضيافة جملاً جاهزة للاستعمال ذات مضامين مفهومة ومقبولة لدى المجتمع على أن ذلك يحدث كلما فخر الشعراء بجودهم وبأنفسهم أو جود قبائلهم ومن يستحقون المدح من الآخرين. حتى تراءى للمتتبع لاشعارهم أن كل ضيف مهما كان شأنه يستحق أن تنحر له الجزر وتقام له المآدب، ويشبع الحي كله من أجله وأن القرى تعميم للجود وبيان لفضل الجواد مهما كان الطارق فرداً أو جماعة يقول المثقب العبدي:[3]

فَلَمَّا أَتَانِيْ وَالسَّمَاءُ تَبُلُّهُ فَلَقَّيْتُهُ أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبَاً

وَقُمْتُ إلى البَرْكِ الهَوَاجِدِ فَاتَّقَتْ بِكَوْمَاءَ لَمْ يَذْهَبْ بِهَا النَّيُ مَذْهَبَا

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ص٢٢٧.

(٢) ديوان سراقة البارقي ص٩٨.

(٣) ديوان المثقب العبدي ص٢٧.

www.mtenback.com

فَرَحَّبْتُ أعلى الجَنْبِ منهـا بِطَعْنَةٍ دَعَتْ مُسْتَكِنَّ الجَوفِ حتى تَصَبَّبَا
تَسَامي بَنَاتُ الغَلِي في حَجـرَاتِهـا تَسَامي عِتَاق الخَيْلِ وَرْداً وأشْهَـبَا

إن الضيف في الشعر باعث على مراد يتوجه إليه الشاعر بكل حواسه ويستنفد فيه كل شعره وهو الإطعام وإقراء الضيف الذي يجعله سبباً في اشراك الحي كله من أجل هذه المناسبة فينتظرون الضيف ليكون تعلة للكريم الذي إذا رأى الضيف قام فرحاً به مسروراً بقدومه لاكرامه وليجد السبب في إطعام الحي الجياع. ولعل هذا هو غرض الربط الوثيق بين الجار والضيف في وصف الجود فأصبح ذكر القرى أمراً مشتركاً بينهما كما يقول عنترة:(١)

وَإنِّي لأحْمي الجَارَ من كُلِّ ذِلَّةٍ وَأفْرَحُ بالضَّيْفِ المُقِيْمِ وأبْهَجُ

ويقول في مناسبة أخرى :(٢)

كَفَى حَاجَةَ الأضْيَافِ حتى يُرِيحَهَا عَلَي الحيِّ مِنَّا كُلُّ أرْوَعَ مَاجِدِ

إن محمل المبالغة في ذكر الضيافة وإكرام الضيف والحديث عنها يقع في نفوس الذين يقرؤون الشعر وهم خارج ظروف الجزيرة القاسية وطبيعتها المكفهرة، أما من يعرف بيئة الجزيرة ويعرف قسوة الحياة فيها فإن المبالغة عنده ستضعف حتى تختفي، حين يتمثل الدارس للشعر العربي والناظر في شعر الضيافة خاصة بيئة الجزيرة العربية وأعراف أهلها وتقاليدهم ونوع الحياة التي يعيشونها في الجاهلية وبعد الإسلام وقد استمروا عليها حتى

(١) ديوان عنترة ص٣٧.
(٢) ديوان عنترة ص٥٠.
والبيت منسوب للمثقب العبدي في ملحق ديوانه ص٥٦.

www.mtenback.com

العصر الحاضر أي قبل خمسين عاماً وبقيت الحياة التي تصفها القصائد الجاهلية والشعر العربي القديم حية ماثلة يعيشها أهل الجزيرة ويمارسون الشكل الذي تنطبق عليه أدبيات الشعر الجاهلي. وعادات العرب التي وصلت إلينا في العصر الحاضر شاهد حي على صدق مانجده في شعرهم القديم وقد أدركت في طفولتي ما وصفه الشعر معمولاً به ومطبقاً كما جاء على لسان الخنساء في مراثي أخيها إذ تقول:

طَوِيْلُ الـــنِّجَادِ رَفِيْعُ الـــعِمَا د كَثِيْرُ الـــــرَّمَادِ إذَا مَا شَتَا

وهو ما قد يظن أنه من المجاز في القول ومن خيال الشعراء ومبالغاتهم إلا أنني شهدت المرأة في العصر الحاضر تنهر نهراً شديداً إذا حاولت إبعاد الرماد عن موقد النار المعد للضيافة وتؤمر أن تزيده ليرتفع عالياً وترشه بالماء حتى لاتطير به الريح. إن الجانب البارز في لغة الشعر هو الجود والقرى على الرغم من اتخاذ نمطية لفظية لاتعطي اتساعاً لغربلة العادات الاجتماعية المتعلقة بآداب الضيافة ولاتمكن للشاعر أن يأتي بمفارقات بعيدة عمًا يكون قد سبق إليه لسان شاعر آخر في المعنى المقصود نفسه، وفي ظل هذه النمطية لايجد القارئ الذي يتتبع قاموس الشعراء مفارقات كثيرة بين شاعر وآخر، فالضيف والقرى ونحر الجزر والسرور بمقدمه وإطعام الحي معه واشعال النار لهدايته هي المفردات المشتركة عند الذين تناولوا هذا الجانب ولكن تقارب الكلمات وتطابق معناها لايجعلنا نتجاوز الرتابة اللغوية إلا في اطار اختلاف الدلالة في موقف من مواقف الضيافة وانجاز المضيف الذاتي عندما يخاطب السامعين وهو ينشد مقطعاً شعرياً يصور فيه خصوصيته وهو يحل ذلك من نفسه محل الواقعة الفردية فيخرج

www.mtenback.com

بعض المخرج من سور الاشتراك اللفظي المتفق عليه كما يتجاوز الشاعر الواقع فيجعل إكرام الضيف جزءاً من الاهتمام الدائم في خلده ويوصي به من بعده كما يقول الأعشى[1]

الضَّيْفُ أوْصِيكُمُ بِالضَّيْفِ إنَّ لَهُ حَقّاً عليَّ فأعْطِيهِ وأعْتَرِفُ

أو يزيد معنى له دلالة خاصة كما جاء في قول المنخل :[2]

فَلاَ وَاللَّه نَادى الحيُّ ضَيْفي هُدُوءاً بِالمَسَاءَةِ وَالعِلاَطِ

وعند عروة لغة قريبة الشبه بهذه لها دلالة متميزة عندما يعمد إلى وصف الضيافة ووصف شعوره نحو الضيف ويدافع عن مذهبه في الحياة فلا يحس السامع أن ذاك يحمل شيئاً من التكلف والمبالغة ولايشعر بالمفارقة بين مايقول الشاعر وما يمكن أن يفعل ولغة عروة الشعرية في الضيافة تعطي طعماً خاصاً في مذهب الجود والسماحة وعليها مسحة عبارات تشف عن روح وثابة إلى تأصيل عادة العرب ومنهجهم في المدح يقول في ذلك :[3]

يُرِيحُ عَلَيَّ اللَّيْلُ أضْيَافَ مَاجِدٍ كَرِيمٍ وَمَالي سَارِحاً مَالُ مُقْتِرَ

أو يقول :[4]

سَلِي الطَّارِقَ المُعْتَرَّ يَا أمَّ مَالِكٍ إذَا مَا أتَانِي بَيْنَ قِدْرِي وَمِجْزَرِي

أيَسْفِرُ وَجْهِي إنَّهُ أوَّلُ القِرى وَأبْذَلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي

---

(١) ديوان الأعشى ص٣٥٩.

(٢) ديوان الهذليين جـ٢ ص٢١.

(٣) ديوان عروة ص٤٦.

(٤) ديوان عروة ص٥٧.

www.mtenback.com

إن هذه اللغة تشف عن صدق وحب للجود وتقرب حتى تلتحم مع واقع الكريم الجواد «أيسفر وجهي إنه أول القرى» ويعقب على هذا السؤال ببذل المعروف وردّ المنكر فيتم العرف الإجتماعي في كرامة الضيف.

ولايتوعر مسكينُ الدارمي كثيراً عندما ينعى نفسه إلى أضيافه ويدرج شخصه فقيداً للضيف القادم في غياطل الظلماء وبرد الشتاء فلا يجده حتى يجد الكرم والفضل الذي جاء يطلب عنده لكن الشاعر يكرر معنى عروة بالجمع بين القرى وبشاشة اللقاء فيقول :(١)

إذَا مِتُّ فَانْعَيْنِي لأضْيَافِ شُقَّةٍ ... رَمَـــى بِهِمُ دَاجٍ بَهِيْمُ الـــغَيَاطِلُ
وَلَسْتُ بِوَقَّافٍ إذَا الخَيْلُ أسْرَعَتْ ... وَلَسْتُ بِعَبَّاسٍ إلى الضَّيْفِ بَاسِلُ
وَلَكِـنَّهُ يَلْقَـــــــاه مِنِّي تَحِيَّةٌ ... وَيَأتِيهِ قَبْـلَ الـعُذْرِ بَذْلِي وَنَائِلِي
وَيَلْقَاهُمُ وَجْهِي طَلِيْقـــاً وَعَاجِلاً ... قِرَايَ وَمِن خَيْرِ القِرى كُلُّ عَاجِلِ

وفي المعنى نفسه يقول جرير:(٢)

إذَا مِتُّ فَانْعَيْنِي لأضْيَافِ لَيْلَةٍ ... تَنَزَّلُ مِـن صُلْبِ السَّمَاءِ جَلِـيْدُهَا

ويحمد الأعشى قرى الضيف ورحابة المنزل فيقول:(٣)

وَيَـــومَ حِمَـــامٍ قَـــدْ نَزَلْنَاهُ نَزْلَةً ... فَنِعْمَ مُنَاخُ الـــــضَّيْفِ والمُتَحَوَّلُ

وحسان بن ثابت يأخذ المنحى الذي سلكه الشعراء ومجدوا به أقوامهم فيقول :(٤)

---

(١) ديوان مسكين الدرامي ص٥٨.
(٢) ديوان جرير ص١٢٤.
(٣) ديوان الأعشى ص٤٠٥.
(٤) ديوان حسان ص٣٤٦.

www.mtenback.com

وَإِكْرَامُنَـا أَضْيَافَنَـا وَوَفَاءنَـا بِمَـا كَـانَ مِـنْ إِلٍ عَلَيْنَـا وَمَوْثِقُ

وخطرات الشعراء تدور في هذه الأبيات على تمجيد الذات ومدح النفس والأخذ بالفخر ومحاولة إقناع المستمع بحقيقة مايقول الشاعر وتصديقه، وإذا التفت الشاعر إلى الآخرين وابتعد عن خصوصياته قليلاً تطورت نظرته ونمت لغة الخطاب عنده ورقى إلى مثل عليا وأخذ في مذهب الثناء على الأجواد وأهل الفضل وزاد في حق الذين يجمعون إلى سماحة البذل رحابة الصدر. وأقرب مايصلح للأستشهاد قول الحطيئة:(١)

أُولَئِكَ آبَاءُ الـــــــغَرِيْبِ وَغَايَتُهْ الصَّرِيْخِ وَمَأوى المُرْمِلِيْنَ الدَّرَادِقِ

وعند أوس بن حجر :(٢)

مَطَاعِيْنُ فِي الهَيْجَا مَطَاعِيمُ للقِرى إِذَا اصفَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ من القَرْسِ

ولايأخذ الشعر العربي بعداً نفسياً أكثر من ذلك ولكنه يحدد الخطرات السريعة والرد المباشر لعامل اللحظة أو التمثل للموقف الذي لايلبث أن يتحول أو يتغير. ولعلي بن محمد العلوي بعض اللمحات المتميزة في وصف الضيف ومباغتته في الليل المظلم واندفاع الرجل الجواد إليه قبل أن يتحقق شخصه فينهض ليهتبل قدومه ويجعله سبباً في نحر الجزر والاطعام والفخر بذلك فيقول :(٣)

وَإِذَا تَأَمَّـلَ شَخْـصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ مُتَسَرْبِـلٍ أَثْـوَابَ مَحْـلٍ مُقْفِرِ

أَوْمَا إِلـى الكَوْمَـــاء هَذَا طَارِقٌ نَحَرَتْنِـيَ الأَعْـدَاءُ إِنْ لَمْ تَنْحَـرِي

---

(١) ديوان الحطيئة ص٣٣٤.

(٢) ديوان أوس بن حجر ص٥٢.

(٣) الرسالة الموضحة ص٣٧.

www.mtenback.com

والليل هو جالب الضيف وملجؤه إلى المنزل الرحب والكريم المضياف، ولذا نجد الليل في الشعر يأخذ اهتماماً خاصاً، فالضيف الذي وصف العلوي هو شخص متسربل بالفقر يراه الكريم فلا يكاد يتحقق شخصه في الظلام حتى يهتز للندى ويقوم للقرى. وعبيد بن الأبرص يمدح من يخلط المعسر بالمؤسر ويفرح بالضيف الطارق الذي يجلبه الليل إليهم فينهض في خدمته وقراه فيقول في ممدوحيه :(١)

الخَالِطُو مُعْسِراً منهم بِمُؤسِرِهِمْ وَأكْرَمُ النَّاسِ مَطْرُوقاً إذَا اخْتُبِطُوا

ويصف عامر بن الطفيل اهتزاز الكريم للجود وأريحيته فيقول :

فَقَامَ أبُو الجَبَّارِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى كَمَا اهْتَزَّ عَضْبُ الشَّفْرَتَيْنِ حُسَامُ

والحطيئة له حق أن يدعي لنفسه مايدعيه العرب ويقول مثلما يقول الشعراء وإن كان ذلك غير مسلم به في حال الحطيئة لكنه قادر أن يقول مايشاء ويمدح نفسه مثل الشعراء فقال:(٢)

أرَدُّ المِخَاضَ البُزْلَ والشَّمْسُ حَيَّةٌ إلى الحيِّ حتى يُوسَعَ المُتَضَيِّفُ

ويقول في سياق آخر يمدح نفسه أيضاً بقرى الضيف :(٣)

عَطَاءُ إلَهِي إذْ بَخِلْتُمْ بِمَالِكُمْ مَهَارِيسُ تَرْعَى عَازِبَ القَفَرَاتِ

مَهَارِيسُ يَرْوِي رِسْلُهَا ضَيْفَ أهْلِهَا إذَا النَّارُ أبْدَتْ أوجُهَ الخَفِرَاتِ

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص٨٦.

(٢) ديوان الحطيئة ص٢٨٢ – ٢٥٥.

(٣) ديوان الحطيئة ص٣٣٢ – ١١٤.

www.mtenback.com

ولن يقف التأمل عند النظر إلى الشعر الذي دار حول الذات وتوشح بخيلاء الفخر والادعاء وذكر النفس بما تود أن تذكر به من فضائل الأعمال، وحسب المرء أن يمس الظاهرة الاجتماعية والمسلمات المتفق عليها عند العرب ثم يدفع في مدارج الحديث إلى موضوعات أخرى قريبة الصلة ووثيقة السبب في الفخر والاشادة بما يواجه أهل الصحراء من مشقة الحياة ومحاولة التجاوز الممكن للظرف القاسي ومقابلة الشدة بالإقدام عليها وتوطين النفس لها حتى تتغلب الإرادة الصارمة على تلك القسوة ويخرج المرء مصقولاً بكرامة التحدي والصمود أمام العواصف العاتية حتى لاتقتلعه من جذور الوجود الذاتي وهو يتجاوز التعثر الذي تضعه الطبيعة المتوحشة في سبيل السالكين. إن الشعور الذي يصور الجواد المضياف ويعطيه أبعاداً إنسانية راقية ويضفي عليه هالة من التبجيل هو شعور باعثه نشوة انتصاره على العقبات الكأداء التي تلقيها الحياة في طريقة فتحاول صده عن تسنم قمم المجد الاجتماعي وإذا تغلب على الظروف التي يعرف أن الكثيرين وقفوا وراءها عاجزين عن قدرة التجاوز كان تغلبه حافزاً ليفخر بنفسه أو يمدح غيره ممن استطاع التجاوز وهو سواء كان شاعراً يفخر بنفسه أو يمدح غيره يعرض بالذين لم يستطيعوا ما استطاع تحقيقه في جهاده وصبره وإصراره في محاولة تذليل الواقع. وذكره لنفسه أو مدحه للآخرين يحمل ضمنا التشجيع والاقتداء من جانب، ومن جانب آخر يحمل التعريض بالذم أو شبه الذم لغيره من الذين خضعوا للعوائق الطبيعية القاسية وتعاملوا معها تعامل الاستسلام والتخاذل والانكسار. وما أكثر هؤلاء وما أعظم سوادهم في كل مجتمع إنساني وجد على الأرض وعصفت به

www.mtenback.com

ملمات الحياة وتنازعته عوامل التحدي، وبين هذين العاملين تمت المفارقة وقام الاستثناء الذي يتحدث عنه شعر الفخر من جانب واحد هو جانب الحياة المعاشة، وتتغلب نوازع الطبيعة في طرفي عامل المعادلة المتمكنة من حياة الإنسان المتفاعل وجدانه معها تفاعلاً فوقياً في حالات الشعور الذي يغلب فيه مبدأ الاقتحام وعدم المهادنة أو الانحناء للأزمات.

والعرب في عصورهم الأولى تغلب على حياتهم المواجهة، فجعلهم واقعهم يسرفون في الفخر في مواجهة الأحداث بكل قوة الحياة وبكل إرادة التجاوز للظروف القاسية التي تعيشها المجموعات البشرية المتنقلة في فجاج الصحراء، وحسبها أن لا تظهر الذلة والهوان أو الضعة التي لاتقرُّ بها حتى في وقت الانكسار الحاد والانهزام الذي لابد منه في بعض المواقف.

www.mtenback.com

المدح باكرام الضيف

المدح بالكرم وبالجود هو الصفحة المفتوحة التي ينشر الشاعر فيها مفاخر نفسه ومآثر قومه فيرصد القيم المحببة في المجتمع ويعرضها في شعره معتداً بها مبالغاً بحظه منها. وقرى الضيف قيمة اجتماعية عظيمة بالغ الشعراء فيها وحرصوا على أن يسجلوا محامد الأجواد كلما وجدوا مجالاً للشعر وسبباً للمدح. وانقسم الشعر المادح إلى نوعين شعر يمدح الشاعر به نفسه وقومه ويقرر مايقوم به من عمل في كل مناسبة فيبرز فخره ويسرع في نشر رصيده الذي يريد له الذيوع وفي هذا الجانب تأخذ المبالغة نصيبها كاملاً وتطغى الصفة الذاتية على حقيقة الواقع.

أما النوع الثاني فهو مدح الشاعر للآخرين بفضلهم واعترافه بجميلهم وهو – أى الشعر – يعد شاهد حق للممدوح فيصبح الشاعر منساقاً بذكر فضائل الجواد الذي بذل ماله وأنفق ثروته في سبل السخاء وطرق المعروف فيصير المدح له والثناء عليه عملاً عاطفياً متجاوباً مع شعور العرب برد الجميل على أهل المعروف فيندفعون إلى ضرب آخر من المبالغة في مدح الكرماء عندما لايستطيعون جزاءهم إلا بالشعر فيزجون الثناء لهم كلما عنت المناسبة للمدح وكلما جاء ذكر الجود والسخاء. ولعل أصدق من وصف الإحساس بجميل المعروف وقيمته وحمد المنعم بنعمته هو الحطيئة

www.mtenback.com

في بيته المشهور:[1]

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لايَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لاَ يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللَّهِ والنَّاسِ

وقد تجذر في وجدان العرب الوفاء والحديث عنه وذكر أصحاب المعروف به وكبر في نفوسهم فضل أهل الفضل وأحجموا في بعض الظروف حتى عن الإقدام على هجاء الأجواد وخافوا حوبة هجائهم إن سبقت في شعرهم سابقة لايرضونها[2]. وغلب على طبعهم الشعور بواجب الشكر فأشادوا بالذين يرون فيهم حباً لمكارم الأخلاق وفضائل الأعمل يقول الأعشى في بعض ممدوحيه :[3]

تَضَيَّفْتُ يَومـــاً على نَارِهِ ... مـــن الجُودِ فـــي مَالِهِ أحْتَكِمْ

ويقول أيضاً :[4]

حَجَرُوا علـى أضْيَافِهِم وَشَوَوا لَهَمْ ... مـــن شَطِ مُنْقِيَةٍ ومـــن أكْبَادِ

وفي موقف ثالث يذكر حالاً أخرى غير السابقتين فيشير إلى كرم الأجواد ولطفهم بضيفهم واعتنائهم به وتقديم أطايب الطعام له فيقول:[5]

المُطْعِمُو الـــلَّحْمَ إذَا مَاشَتَوا ... والجَاعِلُو الـقُوتَ علـى الـيَاسِرِ

---

(١) ديوان الحطيئة ص٥١.

(٢) هجا زهير بن أبي سلمى أهل بيت من بنى عليم بن جناب وكان بلغه عنهم شيء كرهه من وراء وراء. فقال بعد ذلك ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خشيت أن يصبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم. «الديوان ص٥٦».

(٣) ديوان الأعشى ص٨٥.

(٤) ديوان الأعشى ص١٨٣.

(٥) ديوان الأعشى ص١٩٥.

www.mtenback.com

أما كُثَيِّر عزة وهو قليل المدح للضيافة لما شغله عنها من مذهبه الغزلي المشهور فإن صديقه الذي يستحق مدحه وينال إعجابه مضياف كثير الرواد لخيره الواسع ومعروفه الشاسع وله ذكر بالقرى وبالهبات والندى فيقول فيه:(١)

وَأَنْتَ أَبُو ضَيْفَيْنِ: ضَيْفٍ نَفَحْتَهُ ... بِنَفْحَةِ عُرْفٍ عَاجِلٍ فَهْوَ زَائِلُ
وَآخَرَ يَرْجُو مِنْكَ مَا نَالَ قَبْلَهُ ... أَخُوهُ الَّذِي جَهَّزْتَهُ فَهْوَ نَازِلُ

ويجعله أباً للأضياف رحيماً بهم عطوفاً عليهم فيقول فيه :(٢)

وَأَنْتَ أَبُو الأَضْيَافِ يَعْشُونَ نَارَهُ ... وَمُلْقَى رِحَالِ الْعِيسِ وَهُوَ لَغُوبُ

وعنده أيضاً :(٣)

لَنِعْمَ ذُوو الأَضْيَافِ يَغْشَوْنَ بَابَهُ ... إِذَا هَبَّ أَرْيَاحُ الشِّتَاءِ الصَّوَارِدُ

والحاجة عندهم تبعث ذكر الكريم وتبين جسامة فقده وكلما طرق الطارق الحي وجاءت الأضياف تطلب القرى ذكرت حسناته وشروعه في حقوق الضيف وحرصه على إكرام الغريب والرفق عليه فيقول الشاعر فيه:(٤)

وَأَضْيَافُنَا إِنْ نَبَّهُونَا ذَكَرْتُهُ ... فَكَيْفَ إِذَنْ أَنْسَاهُ غَابِرَةَ الدَّهْرِ
فَتًى كَانَ يَقْرِي الشَّحْمَ فِي لَيْلَةِ الصَّبَا ... عَلَى حِينَ لَا يُعْطِي الدُّثُورَ وَلَا يَقْرِي
إِذَا سَلَّمَ السَّارِي تَهَلَّلَ وَجْهُهُ ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ يَسَارٍ وَمِنْ عُسْرِ

---

(١) ديوان كثير عزة ص٢٩٥.
(٢) ديوان كثير عزة ص١٦٦.
(٣) ديوان كثير عزة ص٣٢١.
(٤) الحماسة جـ٢ ص٧٠٥.

www.mtenback.com

إذَا شَوْلُنَا لَمْ نَسْعَ فِيهَـــا بِمِرْفَدٍ قَرَى الـضَّيْفَ مِنهَا بِالمـهَنَّدِ ذي الأثَرِ

ويبدأ القطامي وصفاً للكريم الجواد فيثني عليه ويحمده ويكرر ماتجاذبته لغة المادحين فيه من وصف لاينقطع لنحره الجزر ونصبه القدور الراسيات لإطعام الضيف وإكرام منزله فيقول فيمن يمدح من العرب :(١)

طِوَالُ الذُّرى لايَلْعَنُ الـضَّيْفَ أهْلَهَا إذَا هُو أرْغى وَسْطَهَا بَعْدَمَا يَسْرِي
إذَا لَمْ يَكُنْ فـيـهـا حَلُوبٌ تَكَشَّفَتْ عن الـسَّيْفِ مَصْقُولاً وأبْيَضَ كَالبَدْرِ
وَيَكْفِيكَ ألاَّ يَرْحَلَ الضَّيْفُ لائِمـاً كَرَادِيسُ من نابٍ تَغَامَسُ في قِدْرِ

والضيف والكلاب والقرى مفردات منشورة في شعر المادحين والممدوح غيث وربيع وحياً وأهل للضيف، وكلبه لايهر ولايستنكر الطارق الغريب وهو أليف لايؤذي، والإبل والجزر ترتاع لمقدم الضيف لما يحصل لها من نحر واستهانة بالمال من أجله كما يقول الأخطل :(٢)

أخَالِدَ إيَّاكُمْ يَرَى الـضَّيْفُ أهْلَهُ إذَا هَرَّتْ الـضَّيْفَانَ كُلُّ ضَجُورِ

ويمدح آخر فيقول فيه :(٣)

رَبِيعٌ لِهُلاَّكِ الحِجَازِ إذَا ارْتَمَتْ رِيَاحُ الـثُّرَيَا مـن صَبَا وَجَنُوبِ
وَطَارَتْ بأكْنَافِ الـبُيُوتِ وَحَارَدَتْ عـن الـضَّيْفِ والجيرَانِ كُلُّ جلُوبِ
كَرِيمُ مُنَاخِ الضَّيْفِ لاَعَاتِمُ القِرى وَلاَ عِنْدَ أطْرَافِ الـقَنَا بِهَيُوبِ

(١) ديوان القطامي ص١٥٥.
(٢) ديوان الأخطل ص٦٤.
(٣) ديوان الأخطل ص٢٦٣.

www.mtenback.com

وفي مدح بني عبس يكون رأيه موافقاً إجماع العرب على خصلة الكرم وحق الضيف فيقول فيهم :(١)

بَنُو عَبْسٍ فَوَارِسُ كُلِ يَومٍ تَكَادُ الـــــــهَامُ خَشْيَتَهُ تَطِيرُ
وَفُاةَ تَنْزِلُ الأَضْيَافُ مِنْهُمْ مَنَازِلَ مَايَحُلُّ بِهـــــا الضَّرِيرُ

ولهدبة بن الخشرم أبيات في المعنى الذي يتعاوره الشعر ويغرق فيه الشعراء فيقول في فخره ومدحه :(٢)

وَأَسْرَعَ في المَقْرَي وفي دَعْوَةِ النَّدى إذَا رَائـــــدٌ لِلـــــقَوم رَادَ فَأَجْدَبَا
وَأَقْوَلَنَا لِلضَّيْفِ يَنْزِلُ طَارِقـــاً إذَا كُـرِهَ الأَضْيَـافُ أَهْلاً وَمَرْحَبَا

أما أميه بن أبي الصلت فممدوحوه ينالون حظهم في توسع دائرة الحديث عنهم ووصف فضائل أعمالهم وقدورهم المنصوبة ذات العمق والفخامة يردها الجائعون جماعة تأتي وأخرى صادرة :(٣)

المُطْعِمِينَ الشَّحْمَ فـــــوْ قَ الخُبْزِ شَحْمـــــــاً كَالاَنَافِحِ
نَقْلَ الجِفَانِ مـــــــع الجِفَا نِ إلـى الجِفَانِ كـــــالمَنَاضِحِ
لَيْسَـــتْ بِأَصْغَـــارٍ لِمَـــنْ يَعْفُـــو وَلا رُحٌّ رَحَـــارِحْ
لِـلـضَّيْفِ ثُم الـضَّيْفِ بَعْـ ـدِ الـضَّيْفِ والـبُسُطُ الـسَّلاَطِحِ

---

(١) ديوان الأخطل ص٢٧٥.

(٢) شعر هدبة ص٦٤.

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ص١٧٠.

www.mtenback.com

ويقول في وصف آخر لآنية الطبخ وقدور المستضاف :[1]

وَقُدُورُهُ بِفِنَائِهِ لِلضَّيْفِ مُتْرَعَةٌ زَوَاخِرِ

فوصف آنية الطعام وقدور الكريم صارت حديثاً وموضوعاً للشعراء وتفخيم القدور وسعتها يدل على لازم ذلك وهو الكثرة والجود مثلما تكون كثرة الرماد كناية عن كرم الضيافة فيقول حاتم الطائي [2]

إذَا اسْتُنْزِلَتْ كَانَتْ هَدَايَا وَطُعْمَةً وَلَمْ تُخْتَزَنْ دونَ العُيونِ النَّوَاظِرِ

ويقول النابغة الذبياني المعنى ذاته وهو وصف آنية الطعام :[3]

لَهُ بِفِنَاءِ البَيْتِ سَوْداءُ فَخْمَةٌ تُلَقَّمُ أوْصَالُ الجَزُورِ العَرَاعِرِ
بَقَيَّةُ قِدْرٍ مِنْ قُدُورٍ تُوِرِّثَتْ لآلِ الجِلاَّحِ كَابِراً بَعْدَ كَابِرِ
تَظَلُّ الإمَاءُ يَبْتَدِرْنَ قَدِيحَهَا كَمَا ابْتَدَرَتْ سَعْدٌ مِيَاهَ قُرَاقِرِ

وفي شعر آخر يورد صاحب الحماسة قول الشاعر :[4]

نَصَبْنَا لَهُ جَوْفَاءَ ذَاتَ ضَبَابَةٍ مِنَ الدُّهْمِ مِبْطَاناً طَوِيلاً رُكُودُهَا

ويصف لبيد العامري القدور بقوله :[5]

وَإذَا شَتَوْا عَادَتْ عَلَى جِيرَانِهِمْ رُجُحٌ تَوَفِيهَا مَرَابِعُ كُومُ
لاَيَجْتَوِيهَا ضَيْفُهُمْ وَفَقِيرُهُمْ وَمُدَفَّعٍ طَرَقَ النُّبُوحَ يَتِيمُ

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت ص٢٠٥.
(٢) ديوان الحاتم الطائي ص١٩٩.
(٣) الحماسة ص١٧٠١.
(٤) الحماسة ص١٦٤٣.
(٥) الديوان ص١٣٦.

www.mtenback.com

وله :[1]

تَكِرُّ أحَالِيبُ الـــــــلَّدِيْدِ عَلَيْهِمُ وَتُوْفِي جِفَانُ الضَّيْفِ مَحْضاً مُعَمَّمَا

ويأتي لبيد بن ربيعة العامري بصورة غير باهتة اللون ولا كئيبة المنظر عندما يتناول الضيافة وينظر في مسارب الجود فتصير كلماته مشرقة الديباجة في لغة تعبر عن بيان مملوء بالتوهج الذي تبعثه سماحة النفس المجبولة على حب مكارم الأخلاق ويصبح نصيب الضيف والثناء على من يكرمه موضوعاً طيعاً للشعر سلسلاً مقبلاً سمحاً منقاداً لايتعلثم ولايستكن فيقول :[2]

فَلاَ وَأَبِيْكَ مَـــا حَـــيٌّ كَحَـــيٍّ لِجَـارٍ حَـلَّ فِيهِـم أوْ عَدِيْـم
وَلاَ لِلـــــضَّيْفِ إنْ طَرَقَتْ بَلِيْلٌ بِأفْنَانِ الـــعِضَاةِ وبِالـــهَشِيْمِ

ويقول أيضاً يذكر قيمة الإنسان بما يقدم للأضياف من أسباب الجود وما يفعل من كريم الخلق :[3]

فَتىً عَارِفٌ لِلْحَقِ لا يُنْكِرُ الـقِرَى تَرى رِفْدَهُ لـلـضَّيْفِ مَلآنَ مُتْرَعَا

وإذا ذهب أبوخراش الهذلي مذهب المادحين بالضيافة وصفهم بأنهم لايتعللون ببرد الشتاء القارص ولاتمنعهم عن إكرام الضيف عواصف الطبيعة مهما اشتدت فيقول فيهم:[4]

---

(١) الديوان ص٢٨٤.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص١٠٣.

(٣) ديوان الهذليين جـ٢ ص١٤١.

(٤) ديوان الهذليين جـ٢ ص١٤١.

www.mtenback.com

فَنِعْمَ مُعَرَّسُ الأضْيَافِ تَنْحَى رَحِالَهُمُ شَآمِيَةٌ بَلِيْلُ

وكذلك عند أبي ذؤيب تبدأ رحلة الشتاء بالعلامات القائمة للدلالة عليه وعلى منزلة فيصفه بأنه ظاهر لايخفى مكانه على أجد يحتاج القرى فيقول: (١)

يُقَرِّبُهُ لِلْمُسْتَضِيْفِ إذَا أتَى جِرَاءٌ وَشَدٌ كَالحَرِيْقِ ضَرِيْحُ

ويقول أيضاً :(٢)

أَلْفَيْتَهُ لايَذْمُ الضَّيْفُ جَفْنَتَهُ والجَارُ ذُو البَثِّ مَحْبُوٌ وَمَمْنُوحُ

ويصف ممدوحيه بكثرة المعروف وبذله(٣)

مَطَاعِيْمُ لِلضَّيْفِ حِين الشِّتَاءِ قُبُّ البُطُونِ كَثِيرُو الفَجَرْ

إن المشترك عند الشعراء الذين أخذنا نماذج من شعرهم مهما قل هو إهتمامهم بأنفسهم أو بقومهم إلا أن أحداً منهم لا يترك نصيبه لأخر ولايرى أن غيره أولى منه بتوسيع دائرة الأجواد الذين يصفهم ويثني عليهم ولايتردد كثيراً في تطويع المعنى لمدحهم فيقول النابغة الذبياني: إن جار ممدوحيه وضيفهم في منزلة سواء لايضيع ولايهمل:(٤)

مَتَى تَلْقَهُمْ لاتَلْقَ لِلْبَيْتِ عَوْرَةً وَلاَ الضَّيْفُ مَمْنُوعاً ولاَ الجَارُ ضَائِعاً

---

(١) ديوان الهذليين جـ١ ص٦٢.

(٢) ديوان الهذليين جـ١ ص١٠٩.

(٣) ديوان الهذليين جـ١ ص١٥٠ الفجر، المعروف.

(٤) النابغة الذبياني ص١٦٤.

www.mtenback.com

وممدوحو ذي الرمة كغيرهم من الممدوحين عند الشعراء كافة يطعمون الطعام وينحرون ويشبع في ناديهم الطارق والجار والغريب والضيف فيقول:(١)

إذَا حُلَّ عَنْهُنَّ الرِّحَالُ وَأُلْقِيَتْ ... طَنَافِسُ عَنْ عُوجٍ قَلِيلٍ نَحِيضُهَا
فَنِعْمَ أَبُو الأَضْيَافِ يَنْتَجِعُونَهُ ... وَمَوضِعُ أَنْقَاضٍ أَنِيٌّ نُهُوضُهَا

ويقول في آخرين :(٢)

تَكُبُّونَ لِلأَضْيَافِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ ... مَحَالاً وَتَرْعِيباً مِنَ العَبْطِ وَارِيَا

ولايتكرر معنى في شيء كما يتكرر معنى الجود في الشعر كله وعند الشعراء جميعهم ولايكاد أحد منهم يغفل الحديث عن الضيافة والجود ولايمله، فتأتي الخصال الكريمة موفورة في لغة لاتبتذل ولاتستنكر مهما طال النظر فيها يقول السفاح بن بكير بن معدان اليربوعي يمدح في المعنى إياه:(٣)

وَالمَالِيءِ الشِّيزَى لأَضْيَافِهِ ... كَأَنَّهَا أَعْضَادُ حَوضٍ بِقَاعْ
لايَخْرُجُ الأَضْيَافُ مِنْ بَيْتِهِ ... إلاَّ وَهُمْ مِنْهُ رِوَاءٌ شِبَاعْ

ويقول مُعَيَّةُ بن الحمام في رزء الكريم وفقد الجواد :(٤)

نَعَيْتَ حَيَا الأَضْيَافِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ ... وَمِدْرَهُ حَرْبٍ إِذْ تُخَافُ الـــزَّلاَزِلُ

---

(١) ديوان ذي الرمة جـ٢ ص٧١٣.
(٢) ديوان ذي الرمة جـ٢ ص١٣٢٣.
(٣) المفضليات ص٣٢٣.
(٤) الأمالي جـ١ ص٦٢.

www.mtenback.com

وَمَنْ لايُنَادَى بِالـــــهَضِيمَةِ جَارُهُ إِذَا أَسْلَمَ الجَارَ الأَلَفُّ المُوَاكِلُ
فَمَنْ وبِمَنْ نَسْتَدْفِعُ الـــــضَّيْمَ بَعْدَهُ وَقَدْ صَمَّمَتْ فِينَا الخُطُوبُ الـــنَّوازِلُ

والشاعر الذي يصف الممدوح هذه الصفات ويغرق في مدحه يعرف أنه يقدم ثواباً مرجواً على معروف سالف ويحس قيمة مدحه للممدوح ويرى أنه ينفعل بما يسمع من الثناء ويزيد في البذل والإنفاق ويفخر على غيره. وإذا نعى الشاعر الميت الذي انقطعت أسبابه من الحياة كان الوفاء له والتخليد لذكره هو الدافع الصادق وراء مدحه وحسن الثناء عليه كما يقول الأبيرد الرياحي في رثاء أخيه :[1]

إِذَا الشَّوْلُ راحَتْ وَهِى حُدْبٌ ظُهُورُهَا عِجَافـــــاً وَلَمْ يُسْمَعْ لِفَحْلٍ لَهَا هَدْرُ
كَثِيْرُ رَمَادِ الـــــنَّارِ يُغْشَى فِنَاؤُهُ إِذَا نـــودِي الأَيْسَارُ واحْتُضِرَ الجَزْرُ
فَتَى كَانَ يُغْلِي اللَّحْمَ نَيْئـاً وَلَحْمُهُ رَخِيصٌ بِكَفَّيْه إِذَا تَنْزِلُ الـــــقِدْرُ
يُقَسِّمُهُ حـــــتى يَشِيعَ وَلَمْ يَكُنْ كَآخَرَ يُضْحِـي مـــن غَبِيْبَتِه ذِخْرُ
فَتَى الحيِّ وَالأَضْيَافِ إِنْ رَوَّحَتْهُمُ بَلِيْلٌ وَزَادُ القَوْمِ إِنْ أَرْمَلَ الـسَّفْرُ
إِذَا جَهَدَ الـــــقَوْمُ المَطِيَّ وأَدْرِجَتْ من الضُّمْرِ حـتى يَبْلُغَ الحَقَبَ الضُّفْرُ
وَخَفَّتْ بَقَايَا زَادِهِمِ وَتَوَاكَلُوا وَأَكْسَفَ بَالَ القَـومِ مَجْهُولَةٌ قَفْرُ
سَلَكْتَ سَبِيْلَ الـــــعَالِمِينَ فَمَالَهُمْ وَرَاءَ الذى لاَقَيْتَ مَعْدىً وَلاَ قَصْرُ
وَأَبْلَيْتَ خَيْراً فـــــي الحَيَاةِ وَإِنَّمَا ثَوَابُكَ عندي اليَوْمَ أَنْ يَنْطِقَ الشِّعْرُ

إن الشعر هو الثواب الذي يقدمه الشاعر لمن يفعل الخير وهو ثواب جزل وعطاء سخي دائم المدّ لاينقطع ولايموت ولايفنى كما قال عمر بن

(١) ذيل الأمالي ص٣.

www.mtenback.com

الخطاب لأبناء هرم بن سنان حين سأل بعض ولد هرم:[1] أنشدني بعض مدح زهير أباك فأنشده فقال عمر: إن كان ليحسن فيكم القول، قال ونحن إن كنَّا لنحسن له العطاء. فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم. وفي سؤال آخر وجهه عمرُ لابن زهير قال: ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك؟ قال: أبلاها الدهر يا أمير المؤمنين، قال: لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر.

وقد صدق عمر رضي الله عنه فحلل زهير قد عاشت حتى يومنا هذا يرفل بها هرم بن سنان بين الناطقين بالشعر وكأنه لم يذق طعم الموت وذهبت حلل هرم التي كساها زهيراً. ولقد كسا الشعراء في كل عصور الأدب وحقب التاريخ رجالاً من العرب حللاً لم يبلها الدهر ولهذا كان الحديث الذي لاينتهى عن الشعر وقيمته وعن الشاعر ووظيفته في الناس منذ القدم حتى يومنا هذا فهو اللسان الذي يخلد الأجواد وهو الكنز الذي يحرص العلية والسادة وأهل الفضل على شرائه بمالهم كما تقول الخنساء في بعض شعرها :[2]

نَعِفُّ وَنَعْرِفُ حَقَّ الـــــقِرَى وَنَتَّخِـذُ الحَمْـدَ ذُخْـراً وَكَنْـزا

وتقول :[3]

وَابْكِـي أَخَـاكِ لأَيْتَـامٍ وَأَرْمَلَـةٍ وَابْكِ أَخَاكِ لِحَقِ الضَّيْفِ والجَارِ

---

(١) العمدة، جـ١، ص٨١، ديوان زهير بن أبي صلمي ص١٠.

(٢) ديوان الخنساء ص٨٢.

(٣) ديوان الخنساء ص٧٥.

www.mtenback.com

وتقول :[1]

وَلِلْيَتَامَى وَلِلأضْيَافِ إنْ طَرَقُوا أبْيَاتُنَا لِفِعَالٍ مِنْكَ مَخْبُورُ

والخنساء في رثائها لأخويها كانت دائمة الإلحاح على أنهما يعطيان الضيف حقه والضيافة معناها وقيمتها ويسرعان في اقراء الضيف، وهي بذلك تؤكد أهمية العرف الاجتماعي الذي ينزل من النفوس منزلة الاحترام والتقدير، فصار ترديده جزءاً من السائد المألوف كما جاء على لسانها في أبيات أخرى تذكر عظيم رزء الكريم المضياف على الضيف الطارق قبل أن يكون رزءاً على أهله وقومه فتقول:[2]

فَمَنْ لِقِرى الأضْيَافِ بَعْدَكَ إنْ هُمُو قُبَالَكَ حَلُّوا ثُمَّ نَادَوا فَأسْمَعُوا

وقولها :[3]

ومُنْزِلِ الضَّيْفِ إنْ هَبَّتْ مُجَلْجِلَةٌ تَرْمِي بِصُمِ سَرِيعِ الخَسْفِ رَسَّافِ

وقولها :[4]

فَمَنْ لِلضَّيْفِ إنْ هَبَّتْ شَمَالٌ مُزَعْزِعَةٌ تُجَاوِبُهَا صَبَاهَا
هُنَالِكَ لَو نَزَلْتَ بِآلِ صَخْرٍ قِرَى الأضْيَافِ شَحْماً من ذُرَاهَا

ويمثل فقده في شعرها مأتما حزينا دائماً ليس لذاتها ولا لعاطفتها التي تتقد في لهيب الرزء الكبير ولكنها تجعل ثكله عاماً شاملاً غير خاص بها

---

(١) ديوان الخنساء ص٦٥.

(٢) ديوان الخنساء ص٩١.

(٣) ديوان الخنساء، ٩٨.

(٤) ديوان الخنساء ص١٤٠.

www.mtenback.com

ولا بأهله وقومه وإنما ينال الآخرين منه نصيب فتقول:[1]

فَمَنْ يَضْمَنُ المَعْرُوفَ فـي صُلْبِ مَالِهِ ضَمَانَكَ أوْ يَقْرِي الـضُّيُوفَ كَمَا تَقْرِي

وتقول:[2]

نِعْمَ الفَتَى كَانَ لِلأضْيَافِ إذْ نَزَلُوا وَسَائِـلٍ حَلَّ بَعْدَ الـنَّوْمِ مَحْرُوبِ

وتقول:[3]

مَـنْ لِضَيْـفٍ يَحِـلُّ بِالحَـيِّ عَانٍ بَعْـدَ صَخْرٍ إذَا دَعَـاهُ صُيَـاحَا

وأيضاً:[4]

وَلِـلأضْيَافِ إنْ طَرَقُـوا هُـدُوْءاً وَلِلْكَـلِّ المُحِـلِّ وَكُـلِّ سَفْـرِ

وقد عظم الشعراء موت الرجل الجواد وأبرزوا مكانه في المجتمع وأظهروا حاجة الطارقين إليه، وجعلوا قيامه بواجب الضيافة واهتمامه بتقاليدها الاجتماعية أعظم مناقبه وخير مايذكر عنه وليست الخنساء في الأبيات الماضية هي الشاعرة الوحيدة التي أظهرت الجزع الشديد وعظمته في شخص أخويها وإلا لعدَّ من الثناء على النفس والحديث بفضائل الذات والأهل والعشيرة ولكننا نجد مثلما لدى الخنساء عن أخويها عند شعراء آخرين شعروا بفقد قوم ليسوا ذوي رحم ولاقرابة فأكدوا الجلل الذى تتركه

---

(١) ديوان الخنساء ص٥١.

(٢) ديوان الخنساء ص١٤.

(٣) ديوان الخنساء ص٢٦.

(٤) ديوان الخنساء ص٤٧.

www.mtenback.com

وفاة الجواد الكريم إذ يزعم الشاعر أن الجواد لايهلك عن نفسه ولكنه يهلك عن مدارج الأخلاق وسبل المعروف التي كان يعمرها في حياته ولن يعمرها بعده إلا القليل. فجرير يقول فيمن يريد رثاءه:(١)

إذَا الأمْرُ نَابَ الحـيَّ لَمْ يُقْضَ دُونَهُ وَإنْ طَـرَقَ الأضْيَـافُ لَيْلاً تَبَسَّمَا

ويذكر أبوقيس صيفي بن الأسلت الشيء نفسه عمن تأخذه الحرب من الأجواد فيقول :(٢)

وكَمْ قد أصَابَتْ مِنْ شَرِيفٍ مُسَوَّدٍ طَوِيلُ العِـمَادِ ضَيْفُهُ غَيْرَ خَائِبِ
عَظِيمِ رَمَادِ الـقِدْرِ يَحْمَدُ أمْرَهُ وَذِي شِيمَةٍ مَحْضٍ كَرِيمِ المَضَارِبِ

وحاتم الطائي لاتغريه شهرته بالكرم وطول باعه في الضيافة التي طارت في الآفاق واشتهرت على كل لسان عن إدراك قيمة جود الجواد بعد فقده وتأبينه وتجسيد خسارته على أهل الحاجة والضيف والأرملة والفقير المدقع الذى يحتاج القوت فيقول في ملحان :(٣)

لِيَبْكِ عـلـي مِلْحَانَ ضَيْفٌ مُدَفَّعٌ وَأرْمَـلَةٌ تَرْجِي مَعَ الـلَّيْلِ أرْمَلاَ

ولن ينتهي الشعر العربي أو يقف عند جانب من الثناء ولكنه سيستمر في الحديث ويفتق أوجه المفارقات التي تستجد مع الحياة ومع الناس ومع الزمن السرمدي فلا تنتهي في جيل ولاتقف عند حد. ويجد المرء في لغة

---

(١) ديوان جرير ص٥٠٤.

(٢) ديوان قيس بن صيفي بن الأسلت ص٦٧.

(٣) دويوان حاتم الطائي ص٢٨٢.

www.mtenback.com

هؤلاء المادحين – لأنفسهم أو للآخرين – التعبير الصادق عن التأثر الذي يعكسه المعروف في نفس الشاعر فيتفاعل معه بطبيعة سمحة تصدق عليه ولاتستقل عنه وتسرع على لسانه فلا تشعر بالتردد والاضطراب الذي قد نجده في ممارسات أخرى يقول جران العود :[1]

فَتَى الحَيِّ والأضْيَافِ إنْ نَزَلُوا بِهِ حَذُورُ الضُّحَى تِلْعَابَةٌ مُتَغَطْرِفُ

تلك أمثلة من لغة الشعر الذي يتناول الفخر والمدح وهو أقل مايمكن أن ينهض به هذا البحث، فالمراد هو السياحة الذهنية مع خيال الشعراء الفاخرين المادحين بكرم الأخلاق وانفاق المال في سبيل الحمد وهو تصوير لما يختلج في وجدان العرب من هذه المعاني فيرسمون الصورة المثالية لما يجب أن يكون عليه المرء الجواد وما يستحق عليه المدح فلا يتزحزح عنه بعيداً. لقد جالت العرب جولات كثيرة وصالت مع الأيام في مدارج الحياة التي سادت في الجزيرة العربية وكلما اشتد الفقر واحتاج الناس إلى أريحية الكريم وطلبوا ماعند الأجواد هبت فئة منهم في البذل والإنفاق مهب الريح، فأمتدت إليها الأيدي تنال معروفها وتستهل الألسن بذكر أخلاقها وتمجد أفعالها فيحسب الأجواد ذلك عوضاً يهون في سبيله المال ويحسن من أجله البذل ويليق الإنفاق فيه فتأخذ مقابل المال المبذول بقاء الذكر وحسن الأحدوثة في الخالدين، وإكرام العرب لهم وتقدير أعمالهم، ،وقد يكون لإقراء الضيف والاشتهار به ما يمنع الآخرين من إيذائهم أو العدوان عليهم وقد قيل للنبي ﷺ في غزو بني مدلج ورغب في المغنم والمال:[2]

---

(١) ديوان جران العود ص٢٣.

(٢) البخلاء ص١٦٢.

«هل لك في بيض النساء وأدم الإبل: قال ومنهم؟ قيل بنو مدلج قال: يمنعني من ذاك قراهم الضيف وصلتهم الرحيم» وحسب العرب الذين يبذلون المال في القرى ويصلون الرحم أن يكون لهم شافع عند رسول الله لما يعلم من فضائل هذه الأعمال واحتساب العرب لذكرها وأجرها وقد زاد التعلق بالمحامد وجميل الأخلاق ومايجده الكريم الجواد من احترام في نفوس الناس وما يحلونه من مكانة عالية في قمة الهرم الاجتماعي الباسق، فيعوض ماله ذكره الحسن وحبه عند من يعرفه ويقدر فضله وينال من إحسانه وذاك هو الجزاء العاجل في الدنيا وفي الآخرة له مثله وخير منه.

هجاء البخل على الضيف

بعد استعراض مسهب لرأي الشعراء العرب في الضيافة ومكانة الضيف عندهم ومايدعون من إكرامه فإنه لابد من النظر إلى رأي الآخرين فيما يزعم العرب أنهم يمقتونه ويبتعدون عنه وهو البخل على الضيف حتى يكاد المتتبع لشعرهم أن يفهم أنه لايوجد فيهم بخيل وأن الضيف النازل فيهم يحتكم في أموالهم كيف شاء. وأن الأيدي تتلقفه قبل نزوله والألسن ترحب به والقلوب تخفق بحبه، وأظهر الشعر الفاخر بالضيافة والشعراء المادحون بها أن حرمان الضيف مستحيل وأن جفاءه لايمكن أن يحدث أحد نفسه به، ولأن الشعر هو الشهادة التي تعول عليها فيما يستعرض هذا البحث وهو الحجة الناطقة على ماتزعم العرب فعله، فقد كان الأمر يتطلب استنطاق الشعر وقراءة حججه لنرى مالدى الطرف الآخر من رأي حول الضيافة ومسلمات التمسك بأدابها ومثلما أسعفنا الشعر بصورة جلية واضحة عن الأجواد الفاخرين بالكرم والجود والممدوحين فيهما فقد أسعفنا الشعر بعدد من الأبيات التي تحكي الجانب الآخر عن العرب وعن تجاوبهم مع تقاليد الضيافة وتحقق مايدل عليه المعنى الضمني للمدح الذي نسمعه، إذ من الضرورة أن يكون عدد من الناس لايستهان بكثرتهم بخلاء على الضيف لاينشطون لإقرائه ولايهتمون به ذلك الاهتمام الذي يدّعيه الفريق الأول. ولو كان العرب كلهم أجواداً مطاعيم للضيف منفقي

الأموال في سبيل قراه لما أصبح هناك معنى لتميز الكريم فيهم على سواه ولاجاز مدحه بما يفعله أهله وقومه إذ هم جميعاً يشتركون بصفات الكرم ولافضل لأحد فيهم على غيره إذا تساوت الصفات. أما الواقع فهو أن العدد القليل هم الذين يستطيعون تجاوز معوقات الحياة ويصلون إلى مراحل متقدمة من الإيثار ويشتهرون في مجتمعاتهم بين العرب عامة بالجود بينما تكون الكثرة من الناس بخلاء يحاولون التمسك بأداء أقل الواجبات نحو الأعراف والتقاليد الاجتماعية. فالضيافة عادة ملزمة للجميع إلا أن المدح يأتي لمن تجاوز في بذله وأريحيته حدَّ الإلزام وأظهر في ضيافته قدراً من السماحة فمدح على مقدار تجاوزه الحدَّ الأدنى المتفق عليه عند الجميع. وفيهم من يبلغ به الشح وانكماش اليد إلى حدّ التخلي عن مستوى الإلزام الاجتماعي فينقص عنه أو يبتعد منه وبمقدار نقصه ومسافة بعده تحت خط الاتفاق على الأداء للعرف الاجتماعي يكون الموقف منه والهجاء له وقد هجي أقوام بالبخل على الضيف ووصفوا بكل صور البخل والحرمان للضيف على الرغم من الحق الواجب له الذي يدعيه كل العرب بخيلهم وسخيهم وفقيرهم وغنيهم يقول القطامي في أبيات له يشرح فيها رأيه في الحياة وموقفه من هؤلاء الباخلين ويصف تجربة شخصية مرّت عليه عندما نزل بامرأة من محارب فلم تنشط لقراه وتباطأت بحقه حتى رحل عنها وهو لم يطعم لها طعاماً ولم يذق لها قوتاً:(١)

وَإنّى وَإنْ كَـانَ المُسَافِـرُ نَـازِلاً وَإنْ كَانَ ذا حَقٍ علي النَّاسِ وَاجِبِ

---

(١) ديوان القطامي ص٤٥.

وَلاَبُدَّ أنَّ الـضَّيْفَ مُخْبِرٌ مَا رَأى ... مُخَـبِّـرُ أهْـلٍ أو مُخَـبِّـرُ صَاحِبِ

لَمِخْبِرُكَ الأنْبَاء عـــن أمِّ مَنْزِلٍ ... تَضَيَّفْتُهـــا بَين العُذَيْبِ وَرَاسَبِ

تَلَفَّعْتُ فـــي طَلٍّ وَرِيحٍ تَلَفُّنِيْ ... وَفـي طـرْمِسَاءٍ غَيْرِ ذَاتِ كَوَاكَبِ

إلـى حَيْزَبُونٍ تُوقِدُ الـنَّارَ كَلَمَّا ... تَلَفَّعـتِ الـظَّلْمَاءُ مـن كُلِّ جَانـبِ

تَصَلَّى بِهَا بَرْدَ العشَاء وَلَمْ تَكُنْ ... تَخَالُ وَبِيْصَ الـنَّارِ يَبْدُوْ لِرَاكِبِ

فَمَا رَاعَهـــا إلاَ بُغَامُ مَطِيَّتِي ... يُرِيْحُ بِمَسْحُورٍ من الصَّوْتِ لاغِبِ

تَقُولُ وَقَدْ قَرَّبْتُ كُوري وَنَاقَتـي ... إلَيْكَ فَلاَ تَذْعَرْ عَلَيَّ رِكَائِبِي

فَسَلَّمْتُ وَالـتَّسْلِيْمُ لَيْسَ يَسُرُّهَا ... وَلَكـنَّهُ حَقٌّ عـلـى كُلِّ جَانِبِ

فَرَدَّتْ سَلاَماً كَارِهاً ثُمَّ أعْرَضَتْ ... كَمَا انْحَازَتْ الأفْعَى مَخَافَةَ ضَارِبِ

فَقُلْتُ لَهَا لا تَفْعَلـــي ذَا بِرَاكِبٍ ... أتَاكِ مُصِيْبـــاً مَا أصَابَ فَذَاهِبِ

فَلَمَّا بَدَا حِرْمَانُهَا الضَّيْفَ لَمْ يَكُنْ ... عَلَيَّ مَنَاخُ الـسُّوْءِ ضَرْبَةَ لازِبِ

فَقُمْتُ إلـى مَهْرِيَّةٍ قَدْ تَعَوَّدَتْ ... يَدَاهـا وَرِجْلاَهَا خَبِيْبَ المَوَاكِبِ

ألاَ إنَّ مـا نِيْرَانُ قَيْسٍ إذَا شَتَوا ... لِطَارِقِ لَيْـلٍ مِثْـلُ نَـارِ الحُبَاحِـبِ

يصرح الشاعر في قصيدته أنه ضاف حياً من العرب ونزل على امرأة من محارب فلم تنهض لقراه ولم تقدم له طعام الضيافة فخرج جائعاً يهجوها ويهجو قومها ويهدد بما تخافه العرب وتحسب له كل حساب وهو الذم والعار وما سيخبر عنه الضيف وينشره في الآفاق.

ويقول ذو الرمة في قوم ضافهم فلم ينشطوا لقراه :[1]

(١) ديوان ذي الرمة ص٥٩٤.

تَخَطَّ إلـــي الـــقَفْرِ أمْرَأ الـــقَيْسِ إنَّهُ سَوَاءٌ على الضَّيْفِ أمْرُؤ القَيْسِ وَالقَفْرُ
تُحِبُّ امْرُؤُ القَيْسِ القِرَى أنْ تَنَالَهُ وتَأبَى مَقَارِيهَـــا إذَا طَلَـــعَ الـــنَّسْرُ

وقد وصفهم بأنهم والقفر سواء وما يجد الضيف فرقاً أن يبقى في فلاة من الأرض خالية أو ينزل في امرئ القيس فذلك في رأيه سيان. وفي موضع آخر يضع نفسه مع خصمه موضع المباهلة فيدعو على أبطأ الحيين في قرى الضيف وأبعدهم عن تعجيله فيقول :(١)

لَحَا اللَّهُ أنْأنَا عن الضَّيْفِ بالقِرَى وَأضْعَفَنَا عـــن عِرْضِ وَالِدِهِ ذَبّا

ويصف فضالة بن شريك عاصم بن عمر بن الخطاب بأنه بخيل على ضيفه كريم على نفسه يملأ بطنه وينام وضيفه جائع مجهود فيقول :(٢)

ألاَ أيُّهَا البَاغِي القِرَى لَسْتَ واجِداً قِرَاكَ إذَا مَابِتَّ فـــــي دَارِ عَاصِمِ
إذَا جِئْتَهُ تَبْغِي القِرَى بَاتَ نَائِمـاً بَطِيْنـاً وأمْسَى ضَيْفُـهُ غَيْـرَ نَائِـمِ

ومثلما تقدم من الأبيات أبيات كثيرة تذكر صوراً من البخل وتصف خصال البخلاء وتذم الذين لايفرحون بالضيف ولايقومون بحقه وتصف جالات من حرمان الضيف تحدث في بعض أحياء العرب وعند بعض الرجال فيصور الشاعر أن القفروبيت البخيل سواء وما على طالب القرى إلا أن يختار القفر على من لايقدر حق الضيف كما يقول عمر بن الجأ التيمي:(٣)

---

(١) ديوان ذي الرمة ص١٧٦٢.
(٢) الاغاني جـ١٢ ص٦٧.
(٣) ديوان عمر بن لجأ التيمي ص١١٢.

وَمَنْزِلُ يَرْبُوعٍ إذَا الـــضَّيْفُ آبَهُ سَوَاءٌ عَلَيْهِ والـــقَفَارُ الأمَالِـــسُ

وما يتعرض له الباخل من الهجاء حري بأن يزجره عن البخل ويزجر غيره حتى يتعظ فلا يعمل عمله ولايفعل فعله كما قال مصعب بن عمير الليثي :(١)

سِيرُوا فَقَدْ جَنَّ الـــظَّلامُ عَلَيـــكُمُ فَبِئْسَ امْرُؤٌ يَرْجُو القِرَى عِنْدَ عَاصِمِ
دَفَعْنَا إلَيْه وهْوَ كَالذِّئْبِ حـاظِيـاً نَشُدُّ عـلـى أكْبَادِنَا بِالـعَمَائِـمِ

إنها صورة مخزية وهجاء مقذع تقشعر منها الأبدان وتسوَّد منها الوجوه ويخشاها العربي ذو المروءة فيحذر أن يصيبه مثلها فيحرص على أن يتجنب كل شيء يضعه على لسان الشاعر خوفاً أن يطلق للقول عنانه في ذمِّه سواء كان ما قال حقاً أو باطلاً صحيحاً أو كذباً. إن المهم عنده ألا يندلع لسان بهجائه فيشتري عرضه بالمال ويحفظ ذكره الحسن عن ألسنة حداد تصوره بصورة الإزدراء والتقزم أمام المجتمع الذي يعده الكريم شاهداً عليه. واقراء الضيف هو سلم النجاة يصعده الرجال إلى قمم المجد وهو المكان المتسع أمام المادحين.

وقد عرف الشعراء جزع العرب والأجواد منهم من الهجاء وشدته عليهم فجعلوه أحد الأسلحة الفتاكة ولاسيما مايتعلق بمروءة الرجل أو كرامته أو مايطعن بنجدته وهذا الأشعر الرقبان الأسدي يقول فيمن يهجو :(٢)

---

(١) البخلاء ص٢١٩.

(٢) النوادر ص٧٣.

تَجَانَفَ رِضْوانُ عـــــن ضَيْفِهِ ألَمْ يَأتِ رِضْوَانَ مـــني الـــنُّذُر
بِحَسْبِكَ بـــالـــقَومِ أنْ يَعْلَمُوا بِأنَّكَ فِيْهِـــم غَنِـــيٌّ مُضَـــر
وَقَدْ عَلِمَ المَعْشَرُ الـــــطَّارِقُو نَ بِأنَّكَ لِلـــــضَّيْفِ جُوْعٌ وَقَر
وَأنْتَ مَسِيْـــخٌ كَلَحْـــمِ الحِـــوَا رِ فَلاَ أنْتَ حُلْـــــوٌ وَلا أنْتَ مُر

وبشر بن أبي خازم يتخذ الهجاء ذريعة للإذلال ويعير بني لأم باستهانتهم بحق الضيف وعدم القيام بواجب القرى فيقول :(١)

ألاَ أبْلِـــغْ بَنِـــي لأمٍ رَسُـــولاً فَبِئْـــسَ مَحَلُّ رَاحَلَةِ الـــغَرِيْبِ
لِضَيْـفٍ قَـدْ ألَـمَّ بِهَـا عِشَـاءً عَلـــى الخَسْفِ المُبَيَّنِ والجَدُوبِ

وقد كان من العرب وحتى من الشعراء من وصف بأنه يكره الضيف ويبغضه ولايود أن يراه مرة أخرى وهو عندهم همّ ثقيل وليل طويل لاينجلي مقامه فيهم ولو كان قصيراً إذا صدقنا حسين بن عرفطه إذ يقول فيمن يصفهم بالبخل ويعيرهم بكراهة الضيف:(٢)

وَالـضَّيْفُ عِنْدَكَ مِثْلُ أسْوَدَ سَالِخٍ لابِلْ أحَـــــبُّهُم إلَيْكَ الأسْوَدُ

وفي مقابل من يوقدون النار على النشز العالي لجلب الضيف يوصف قوم منهم أنهم لايؤذنون للصلاة خشية أن يسمع الآذان ضيف فيأتي إليهم طالباً القرى فيقول بعض الشعراء في هجاء البخلاء :

تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الأضْيَافِ خُرْسَـــاً يُصَلُّونَ الـــــصَّلاَةَ بِلاَ أذَانِ

---

(١) ديوان بشر بن أبي خازم ص٢١.
(٢) بهجة المجالس جـ١، ص٢٩٩.

ويعيب الحطيئة بني بجاد ويعيرهم بحرمان الضيف وأنه لايحمدهم أحد فيقول فيهم :[1]

مَنْ كَانَ يَحْمَدُ فِي القِرَى ضِيفَانَهُ فَبَنُو بِجَادٍ فِي القِرَى لَمْ يَحْمَدُوا

كل ماسبق من الهجاء لنماذج الباخلين على الضيف يتخذه الشعراء العرب موضوعاً قد لايكون فيه من الصواب إلا مايشفي غضب الشاعر الهَجَّاء وينتقم له ممن استحق هجاءه فيقلب حسنات المهجو إلى قبائح وفضائله إلى نقص وعيب ويسلط لسانه على أكرم الناس فلا يشفع له فضل ولا يرعى الشاعر فيه ذمة وقد عرضنا هجاء بشر بن أبي خازم لبني لأم وهو يعني سيدهم أوس بن حارثة الذي وصفه حاتم الطائي أمام النعمان بأنه خير منه وأن له عشرة من الولد أخسهم أفضل من حاتم الطائي نفسه[2].

لكننا لانعدم في الشعر العربي نموذجاً آخر للناس يبغض الضيف ويهجوه ويبخل عليه وهو ليس هجاء يقلب الواقع ويغير الحقيقة ويشيع حاسة الغضب ضد المهجوين لكنه رأي الشاعر نفسه الذي يعبر به عن ذاته وعن كراهيته للأضياف ولايخفي بخله عليهم واستثقاله لوجودهم عنده ويود لو لم يرهم بفناء منزله أبداً. وهذا الصنف يناقض مايدعيه الذين يتحدثون عن إكرام الضيف ويرحبون به ويظهرون في شعرهم أنهم ربيع الأضياف ومأوى الجائعين ويمدحون من أرادوا مدحه بالسخاء وإطعام

---

(١) ديوان الحطيئة ص٢٨٩.

(٢) ديوان حاتم الطائي ص٥٥.

الطعام للغريب والطارق. ويهجون من أرادوا هجاءه بعكس ذلك. والالتفاف ممكن لاستنطاق بعض الشعراء الذين أعلنوا رأيهم بأنفسهم وهجوا الضيف وأظهروا عدم الرغبة بضيافته عندما تجلبه إليهم الحاجة فلا يجدون بداً من قراه على مضض وعسر وتذمر منه واستثقال له. وهذه الفئة لاتخفي كرهها للضيف وضيقها به وتخالف مايزعم العرب من الظهور بالكرم والجود والتمدح بهما. وقد عرف الشعراء من كان هجاء للآضياف يبغضهم ولايخفي بخله عليهم ومنهم الحطيئة الذي ينسب إليه أنه يقول للضيف إذا نزل به وطلب القرى: «ما ضمنت لأهلك قراك:[1] وكان لاينزل به ضيف إلا هجاه. ومن هجائه له قوله:[2]

وَسَلَّمَ مَرَّتَيْنِ فَقُلْتُ مَهْلاَ ... كَفَتْكَ المَرَّةُ الأُولَى السَّلاَمَا
وَنَقْنَقَ بَطْنُهُ وَدَعَا رُؤَاساً ... لَمِا قَدْ نَالَ مِنْ شِبَعٍ فَنَامَا

وغير الحطيئة كان حميد الأرقط[3] هجاءً فحاشاً عليهم نزل به مرة ضيوف فأطعمهم تمراً وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه وأنهم يسطرون الأخبار ويتحدثون بما لايود أن يسمع منهم وما فعلوا ذلك إلا توسلاً إلى الطعام وانتظاراً له فقال :

يُسَطِّرُونَ لَنَا الأَخْبَارَ إِذْ نَزَلُوا ... وَكُلُّ مَاسَطَّرُوا لِلَّقْمِ تَمْكِيْنُ
بَاتُوا وَجُلَّتُنَا الصَّهْبَاءُ بَيْنَهُمُ ... كَأَنَّ أَظْفَارَهُمْ فِيهَا سَكَاكِيْنُ
فَأَصْبَحُوا وَالنَّوَى عَالِي مُعَرَّسِهِمْ ... وَلَيْسَ كُلَّ النَّوَى تُلْقِي المَسَاكِيْنُ

(١) الأغاني جـ٢ ص١٤٢.
(٢) الأغاني جـ٢ ص١٤٤.
(٣) الشعر والشعراء جـ١ ص٣٢٢.

وقد اشتهر بلقب هجاء الأضياف وقال في ضيف له يصف أكله :

مَابَيْنَ لُقْمَتِهِ الأولَى إذَا انْحَدَرَتْ وَبَيْنَ أخْرى تَلِيْهَا قَيْدُ اظْفُورِ

وقال في وصف آخر :

تُجَهِّزُ كَفَّاهُ وَيَحْدُرُ حَلْقُهُ إلى الزَّوْرِ مَاضُمَّتْ عَلَيْهِ الأنَامِلُ

ومن الشعراء المشهورين بهجاء الأضياف مزرد بن ضرار، وهو خبيث اللسان حلف ألا ينزل به ضيف إلا هجاه ولا يتنكب بيته إلا هجاه ومن قوله في ضيفه :(١)

فَقُلْتُ لَهُ مَا تَبْتَغِي: قَالَ أبْتَغِي : قَلُوْصاً لَنَا وَرْقَاءَ من نِعَمِ الخُضْرِ
عَجِبْتُ لَهُ إذْ يَتَّقِي الكَلْبَ بالعَصَا وَلاَ يَتَّقِي صُمَّ الأسَاوِدِ إذْ تَسْرِى
وَلَكِنَّهُ نَقَّتْ ضَفَادِعُ بَطْنِهِ أنْ أخْبَرَ أصْرَاماً بنَخْلِ أوْلِي تَمْرِ
فَبَانَتْ لَهُ الشِّيْزَى قِيَاماً بِرِزْقِهِ إلى أنْ غَدَا مِنْهُنَّ كَالأتُنِ القَمْرِ
فَأطْعَمْتُهُ حَتى حَبَتْ حَاوِيَاؤُهُ كَحَبْوِ الجَوَارِي فِي مَلاَعِبِهَا البُجْرِ
فَقُلْتُ لَهُ لمَّا تَجَهَّزَ غَادِياً ألاَ كُلُّ عَوْفِي يَضِيْفُ وَلاَ يَقْرِي

ومزرد من سادات قومه وأهل الشرف فيهم فلم يمنعه شرفه من إقدامه على كسر الأعراف التي تبجل حق الضيف وخرج على سنن العرب في احترام الضيافة وأعلن في شعره أنه لايسر بمقدم الضيف ولا يفرح به.

---

(١) ديوان مزرد بن ضرار الغطفاني ص٤٩.

وانظر أيضاً الديوان عن هجائه للأضياف ص٦٦ وكيف كانت الضيوف تتقي لسانه وتهرب عنه خشية هجائه للضيف.

وممن نطق شعره بخواطر بغضه للضيف ووصفه مستثقلاً قدومه إليه متضائقاً من حديثه مسكين الدارمي إذ يقول في ضيفه :[1]

أَتَيَ يَخْبُطُ الظَّلْمَاءَ وَاللَّيْلُ دَامِسٌ يُسَائِلُ عَنْ غَيْرِ الَّذي هُوَ أَمِلُ
فَقُلْتُ لَهَا قُومِي إِلَيْهِ فَيَسُرِّي طَعَاماً فَإِنَّ الضَّيْفَ لاَبُدَّ نَازِلُ

وفي أبياته ماينم عن عدم رغبته بالفضل الذي يدعيه العرب ونضحت معانيه باستثقال الضيف الثرثار الذي يشغل نفسه والآخرين في أحاديث هامشية غير ذات بال وهو قادم يبحث عن شيء آخر. وحميد الأرقط يأتي بأبيات مشابهة اللغة واللحن والمعنى فيقول في ضيفه غير ماسبق له من شعر :[2]

أَتَانَا وَمَادَانَاهُ سَحْبَانُ وَائِلُ بَيَاناً وَعِلْماً بِالَّذي هُوَ قَائِلُ
فَمَازَالَ مِنْهُ اللَّقْمُ حَتى كَأَنَّهُ مِنْ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بَاقِلُ

إن الكلام الكثير الذي يتحدث به الضيف منذ قدم إلى حميد غير ذي موضوع فالمطلوب القرى والطعام وما إزجاء الكلام إلا جزء من التعلة التي لا فائدة منها ولايستسيغها حميد. وعند مسكين الدارمي نزعة عدوانية ضد الضيف وشعور بالملل منه لايخفيه في طيات أبياته المتناثرة وفي حنايا شعره ومنها قوله :[3]

---

(١) ديوان مسكين ص٥٧.

(٢) الأبيات منسوبة لمسكين الدارمي في ديوانه ص٥٨.

(٣) ديوان مسكين الدارمي ص٤٦.

وَضَيْفٍ يَخُوْضُ اللَّيْلَ خَوْضاً كَأَنَّمَا يَخُوضُ بِهِ حـــتى تَأَوَّبَنِـي بَحْـرَا

ومسكين له في قومه نسب ومكانة اجتماعية يجب ألاّ يفرط فيها ولايعرضها للهجاء والذّم ومثله كان مزرد بن ضرار من أعيان قبيلته وأهل الشرف في غطفان وقد هجا الضيف مثل مسكين.

إن الطبيعة الأنسانية مواتية لكل هذه المفارقات وجديرة أن تظهر في مجتمع الجزيرة فئة – نظنها قليلة – يقوى عندها الاهتمام بأمجاد العرب فتحافظ عليها وتضحي في سبيلها بكل غالٍ ورخيص – وفئة كثيرة بل العامة منهم – تقري الضيف بعسر وتقبل إقامته على مضض ولكنها لاتتنكر للعرف الاجتماعي ولاترفضه لما فيه من إشراق الحياة وما يجلبه من الذكر الحسن المحبب لدى العرب. وفئة ثالثة قليلة كقلة الفئة الأولى تعلن بغضها للضيف وتبخل بخلاً شديداً عليه ويتفلت رأيها فيما روي عنها من شعر كما هو في الأبيات السابقة. وإذا كانت الفئة الأولى تفخر بإقراء الضيف وتمدح به فإن الفئة الثالثة تهجو الضيف وتظهر موقفها في شعرها ويهجوها الشعراء ببخلها عليه وحرمانها إيّاه. وتصبح لغة المادحين للفريق الأول لغة هجاءة حادة للفريق الثاني وقد ذكرنا فخر العرب فيما مضى من شعر بأن كلابهم لاتنبح الضيف ولاتهره بل تدله إلى أهلها وتقوده إليهم عندما يسمع الضيف نباحها فيتجه إليهم ويلقونه بالبشر وحسن الاستقبال، أما عند البخلاء فإن الكلب يصبح موضوعاً مقابلاً للأول كما يقول صخر ابن أعي الأسدي:[1]

---

(١) الأغاني جـ٢ ص١٤٤.

ألاَ قَبَّحَ الـــــــلَّهُ الحُطَيْئَةَ إنَّهُ عَلَى كُلِّ ضَيْفٍ ضَافَهُ فَهْوَ سَالِحُ
دَفَعْتُ إلَيْهِ وَهْوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ ألاَ كَـــــــلُّ كَلْبٍ لاَ أبَالَكَ نَابِحُ
بَكَيْتَ عَلَى مَذْقٍ خَبِيْثٍ قَرَيْتَهُ ألاَ كُلُّ عَبْسِيٍ عَلَى الزَّادِ شَائِحُ

وغير الأبيات السابقة أبيات أوردها الجاحظ تصف موقف بعض العرب الذين يشلون الكلاب لتطرد الضيف وتبعده عن ساحة الحي فيقول الشاعر في وصفهم :(١)

نَزَلْنَا بِخَلاَّدٍ فَأشْلَى كِلاَبَهُ عَلَيْنَا فَكِدْنَا عِنْدَ بِيْتَيْهِ نَؤكَلُ
تَنَاوَمْتَ نِصْفَ اللَّيْلِ ثُمَّ أتَيْتَنَا بِقَعْبَيْنِ مِنْ ضَيْحٍ وَمَا كِدْتَ تَفْعَلُ
فَقُلْتُ لأصْحَابِي مُسِراً إلَيْهِمُ أذَا اليَومُ أمْ يَومُ القِيَامَةِ أطْوَلُ

إن هذا هو الأقرب إلى طبيعة الأشياء وهو ألاَّ يكون العرب جميعهم أهل ضيافة وقرى وأن العدد القليل هو الذي يحافظ على الضيافة ويطلب الذكر الجميل والسمعة الطيبة حتى لايشنأ ولايعاب فضلهم ويشوه تاريخهم لكن توظيف الشعر لصالح الجميع جعل فكرة الكرم والضيافة هي المتميزة الشاملة التي تجلت في مضمون الشعر العربي القديم.

---

(١) الحيوان جـ٢ ص٢١٠.

الخاتمة

وبعد هذا الاستعراض للشعر الذي ذكر فضل القرى وشرح عادات العرب في قرى الضيف وموقفهم من الكرم والجود وفخرهم الذي يبلغ بهم حداً لايكاد يصدق على غيرهم على الرغم مما وصفت به جزيرتهم من شدة الطبيعة وقلة الزرع وانعدام الأنهار، كما وصفت حياتهم بالفقر والحاجة وضيق ذات اليد حتى إن العطية القليلة والنزر اليسير يكبر ويعظم لموقع الحاجة إليه عند بذله، لابقدر كثرته أو قلته، وقد مدح عويف القوافي، طلحة بن عبدالله بن عوف بشعر لم يترك لغيره فضلاً يصل إليه بعده حتى أغضب ذلك المدح الوليد بن عبدالملك بن مروان بعد موت طلحة وقال للشاعر عندما قدم لمدحه ما بقيَّت لي بعدما قلت لأخي بني زهرة... ألست الذي يقول :[1]

يَاطَلْحَ أنْتَ أخُو الـــنَّدَى وَحَلِيْفُهُ ... إنَّ الـــنَّدى مـــن بَعْدِ طَلْحَةَ مَاتَا

إنَّ الـــــفِعَالَ إلَيْكَ أطْلَقَ رَحْلَهُ ... فَبِحَيْثُ بِتَّ مـــــن المَنَازِلِ بَاتَا

أو لست الذي يقول :

إذَا مَاجَاءَ يَوْمُكَ يَا ابْنَ عَوفٍ ... فَلاَ مَطَرَتْ على الأرْضِ السَّمَاءُ

وَلاَسَارَ الـــــبَشِيْرُ بِغُنْمِ جَيْشٍ ... وَلاَ حَمَلَتْ عـلى الـظَّهْرِ الـنِّسَاءُ

---

(١) الأغاني جـ١٩ ص١٣٣.

تَسَاقَى النَّاسُ بَعْدَكَ يَاابنَ عَوْفٍ ذَرِيْعَ المَوْتِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءُ

ألم تقم علينا الساعة يوم قامت عليه؟ لا والله لا أسمع منك شيئاً ولا أنفعك أبداً. أخرجوه عني.

فلما سألوه عما أعطاه طلحة حتى استحق كل مدحه قال: أما والله لقد أعطاني غيره أكثر من عطيته لكن لا والله ما أعطاني أحد قط أحلى في قلبي ولا أبقى شكراً ولا أجدر ألا أنساها من عطيته[1] ثم ذكر شيئاً قليلاً من العطاء إلا أنه وافق حاجة وسدّ فاقة فعظم قدره عند الشاعر لموافقته خلة وحاجة فسدهما فكانت هذه قيمة العطية التي لم يجد أحلى منها في قلبه وأنه لاينساها أبداً، وبهذا يصح أن تكون قيمة الجود والعطاء والكرم بمقدار الحاجة إليه وقد أشار بشار إلى هذا المعنى فقال :

إذَا تَكَرَّهْتَ أنْ تُعْطِي القَلِيْلَ وَلَمْ تَقْدِرْ على سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرِ الجُوْدُ
بُثَّ النَّوَالَ وَلاَ تَمْنَعْكَ قِلَّتُهُ فَكُلُّ مَاسَدَّ فَقْراً فَهْوَ مَحْمُوْدُ

ومع بذل القليل على الرغم من الحاجة إليه فإن الحياة الاجتماعية كانت تنزع إلى الظهور بمظهر القوة والاستعلاء وحب السيادة وقد ألمح محمد حسين إلى هذه الخصلة في إرثهم الأدبي فقال: «لم يكن الكرم ممدحاً لأنه من آثار الرحمة والعطف ولكن لأنه مظهر السيادة والتفضل والقوة والاستعلاء، فالكريم هو القوي الذي يجود مما تجدي عليه السيوف والرماح، وهو لايدخر المال لأنه لايخشى الفقر ولايشفق من المستقبل مادام

(١) ديوان بشار ص٢٣٨.

قادراً أن ينتزع الثروة حيث كانت ظالماً مقتدراً»[1]. وإذا كان هذا القول قد استنبط من صورة القوة والاستعلاء كما نص على ذلك الباحث فإن الدافع الأقوى ليس هو القدرة على انتزاع المال لإنفاقه وإنما التجاوب مع النزعات النفسية التي تحبب خصال المروءة وتقرب القادرين على البذل إلى نفوس الناس وتخلهم مكانة رفيعة في المجتمع الذي يقدر مايقومون به ويثمنه لهم وقد قرب من هذا المعنى الأستاذ محمد الخضري حين قال:[2] «ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف شعرهم بين ممتدح به ومثن على غيره، وكان الواحد منهم يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها فيذبحها لضيفه يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الضَّيْفَ يُوْ .... مَا سَوْفَ يَحْمَدُ أَوْ يَلُومُ»

إن من لايملك إلا الناقة الواحدة أو الشاة الواحدة فيقدمها لضيفه طيعة بها نفسه ليس ذاك الذي تجدي عليه الرماح والسيوف المال وينتزع الثروة بالقوة ظالماً مقتدراً كما في النص السابق بل إن الخوف من هجاء العرض والطمع بالحمد هو الأقرب إلى تفسير جودهم وإنفاقهم وكرم أخلاقهم. وقد أدرك الأستاذ طه الحاجري في تقديمه لبخلاء الجاحظ المفارقة التي يفتعلها العربي وميز هذا الإحساس عندما علل قيام الجاحظ برسم صورة

---

(١) الهجاء والهجاؤون ص٩٨.

(٢) محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية جـ١ ص٤٠.

البخلاء وزعم أن الأمر قائم على أسمى النزعات الفنية وأجدرها أن ترتفع به فوق جميع تلك الإعتبارات ذلك هو تصوير تلك الحركات النفسية المختلفة والخلجات الذهنية المتفاوتة في اسلوب فني جميل»[1].

وقد أكد الجاحظ[2]: «أن حياة العرب ليست كلها بؤساً وفقراً وليس الإنفاق عندهم محدوداً قليلاً ثم نفى أن تكون صفاتهم للمآدب والقدور وآلات الطعام متخيلة مفتعلة ولكنهم كما يقول أهل إنفاق لايعبأون بشيء عندما تخصب أرضهم وتمرع حياتهم : وهم وإن كانوا – يعني العرب – في بلادهم جدب فإنهم أحسن الناس حالاً في الخصب، فلا تظنن أن كل مايصفون به قدورهم وجفانهم وثريدهم وحيسهم باطل. حدثني الأصمعي قال سألت المنتجع بن نبهان عن خصب البادية فقال: ربما رأيت الكلب يتخطى الخلاصة وهي له معرضة شبعاً» أي أن لفحات الفقر وغلبة شظف الحياة عليهم لم يعلمهم البخل أو التقتير على أنفسهم أو في حياتهم وإنما علمهم الإنفاق والبذل فجعلوا أيام الخصب تعبيراً للإنفاق والبذخ واظهار الترف والبعد عن الإدخار لليالي المظلمة في مستقبل الأيام واتعظوا أشدة العظلة فيما يجدون من ألم الجوع عند الحاجة فعلمهم جوعهم قيمة الوجبة ووقعها في نفس المحتاج الجائع حتى أصبح الجود طبيعة جبلت عليها أخلاقهم كما تقول غنية بنت عفيف بن عمرو :[3]

لَعَمْري لَقَدْماً عَضَّني الجُوْعُ عَضَّةً فَآلَيْتُ ألاَّ أمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعـــــاَ

---

(١) البخلاء ص٤٢.

(٢) البخلاء ص٢٢٣.

(٣) انظر مقدمة ديوان حاتم الطائي ص١٠.

إن هذا البيت أقرب مايفسر لنا سبب إنفاق العرب والمبالغة في الكرم والاطعام مع مانعرف عن بيئتهم وحياتهم من قلة وفقر وحاجة دائمة فلم يمنعهم ماهم فيه من أن يدعوا إلى الجود وأن يفخروا بالكرم ويهجوا بالبخل ويذموا من لم يستطيع تجاوز علل النفس وجبلة الإمساك وحب التملك الذي وجد عند الإنسان وكان غريزةً ثابتة في سلوكه إلا أنك تجد أنهم قد جعلوا امتلاك الفضل والحمد والذكر الحسن مكان إمتلاك المال والثروة فيتسامى العربي برغبته إلى الكمال وحب الخلود الدائم والبقاء المستمر وهذا مافعلته العرب وفخرت به وبالغت في وصفه حتى عرف عنها وأقرت لها الشعوب والأمم بكرم الضيافة وبذل المال في سبيل امتلاك المجد.

المصادر والمراجع

الاغاني :

تأليف : أبي الفرج الأصفهاني

التاريخ : ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

الطبعة : الرابعة

الأمالي :

تأليف : أبي علي القالي

نشر : دار الكتاب العربي ببيروت

الإمتاع والمؤانسة

تأليف : أبي حيان التوحيدي

تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين

الناشر : دار مكتبة الحياة بيروت

أمية بن أبي الصلت حياته وشعره

تحقيق : بهجة عبدالغفور الحديثي

التاريخ : ١٣٧٥هـ

الناشر : وزارة الإعلام بغداد

إكرام الضيف

تأليف : الحافظ أبي اسحاق إبراهيم بن اسحاق الحربي

تحقيق : عبدالغفور سليمان البنداري

التاريخ : ١٤٠٦ - ١٩٨٦م

الطبعة : الأولى

الناشر : دار الكتاب العلمية بيروت

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب

تأليف : محمود شكري الألوسي

تحقيق : محمد بهجة الأثري

الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م

بهجة المجالس وأنس الجالس

تأليف : يوسف النمري القرطبي

تحقيق : محمد مرسي الخولي

نشر : دار الكتاب العلمية بيروت ١٩٨١م

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب

تأليف : عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري

تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم

التاريخ : ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م

الناشر : دار نهضة مصر للطبع والنشر

الجامع لأحكام القرآن
تأليف : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
تحقيق : أحمد عبدالعليم البردوني
الطبعة : الثالثة
التاريخ : ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م
نشر : دار الكتاب العربي للطباعة

الحماسة : شرح ديوان الحماسة
تأليف : أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي
تحقيق : أحمد أمين وعبدالسلام هارون
التاريخ : ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م
الطبعة : الثانية
الناشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر

الحياة العربية في الشعر الجاهلي
تأليف : أحمد محمد الحوفي
التاريخ : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
الطبعة : الخامسة
الناشر : دار نهضة مصر

الحيوان
تأليف : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبدالسلام خارون
الناشر : دار إحياء التراث

«ديوان الأفوه الأودي» ضمن مجموعة الطرائف الأدبية
حققه : عبدالعزيز الميمني
التاريخ : ١٩٣٧م
الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس
تحقيق : محمد محمد حسين
التاريخ : ١٩٧٤م
الناشر : دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت

ديوان امريء القيس
تحقيق : أبوالفضل إبراهيم
الطبعة : الرابعة
الناشر : دار المعارف بمصر

ديوان أوس بن حجر

تحقيق : محمد يوسف نجم

التاريخ : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

الطبعة : الثالثة

الناشر : دار صادر بيروت

ديوان بشار بن برد

تحقيق : محمد الصادق عفيفي

التاريخ : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الناشر : دار الرائد العربي

ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي

تحقيق : عزة حسن

التاريخ : ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م

الناشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق

ديوان جران العود النميري

تحقيق : أحمد نسيم

التاريخ : ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م

الطبعة : الأولى

الناشر : دار الكتب العصرية القاهرة

ديوان حسان بن ثابت

تحقيق : سيد حنفي حسنين

التاريخ : ١٩٧٤م

الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب

ديوان الحطيئة

تحقيق : نعمان أمين طه

الطبعة : الأولى

التاريخ : ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م

الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر

ديوان الخنساء

تحقيق : كرم البستاني

الطبعة : السابعة

التاريخ : ١٩٧٨م

الناشر : دار الأندلس - بيروت

الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره

تأليف : أبي علي محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب

تحقيق : محمد يوسف نجم

التاريخ : ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الناشر : دار صادر بيروت

ديوان الراعي النميري

تحقيق : راينهرت فاييرت

الطبعة : ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

نشر : دار فرانتس - بيروت

ديوان ذي الرمة

تحقيق : عبدالقدوس أبو صالح

التاريخ : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الناشر : مؤسسة الإيمان - بيروت

ديوان سحيم عبد بني الحسحاس

تحقيق : عبدالعزيز الميمني

التاريخ : ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م

الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة

ديوان سلامة بن جندل

تحقيق : فخر الدين قباوة

التاريخ : ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م

الطبعة : الأولى

الناشر : المكتبة العربية - حلب

ديوان شعر حاتم الطائي
تحقيق : عادل سليمان جمال
الناشر : مطبعة المدني – القاهرة

ديوان الصمة بن عبدالله القشيري
تحقيق : عبدالعزيز الفيصل
التاريخ : ١٤٠١هـ – ١٩٨١م

ديوان الطفيل الغنوي
تحقيق : محمد عبدالقادر أحمد
التاريخ : ١٩٦٨م
الطبعة : الأولى
الناشر : دار الكتاب الجديد

ديوان عامر بن الطفيل
نشر : كرم البستاني
التاريخ : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

ديوان عبيد بن الأبرص

تحقيق : حسين نصار

الطبعة : الأولى

التاريخ : ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م

الناشر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر

ديوان شعر عبدالله بن رواحة

تحقيق : وليد قصاب

التاريخ : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الناشر : دار العلوم

ديوان عروة بن الورد

نشر : كرم البستاني

ديوان عنترة بن شداد

نشر : كرم البستاني

التاريخ : ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر

ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت
تحقيق : حسن باجودة
نشر : مكتبة دار التراث القاهرة

ديوان كثير عزة
تحقيق : إحسان عباس
التاريخ : ١٣٩١هـ - ١٩٧١م
الناشر : دار الثقافة بيروت

ديوان القطامي
تحقيق : ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب
التاريخ : ١٩٦٠م
الناشر : دار الثقافة بيروت

ديوان ابن مقبل
تحقيق : عزة حسن
التاريخ : ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م
الناشر : مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم

ديوان مسكين الدارمي

تحقيق : عبدالله الجبوري

التاريخ : ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م

الطبعة : الأولى

الناشر : دار البصري

ديوان النابغة الذبياني

تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم

الناشر : دار المعارف بمصر

ديوان الهذليين

تحقيق : أحمد الزين

التاريخ : ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري

تحقيق : إحسان عباس

التاريخ : ١٩٦٢م

الناشر : وزارة الإعلام - الكويت

شعر الأخطل

تحقيق : فخر الدين قباوة

التاريخ : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

الناشر : دار الآفاق الجديدة - بيروت

شعر شبيب بن البرصاء ضمن شعراء أمويون

تحقيق : نوري حمّودي القيسي

التاريخ : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة : الأولى

الناشر دار عالم الكتب

شعر السموءل

تحقيق : عيسى سابا

التاريخ : ١٩٥١م

الناشر : مكتبة الصياد - بيروت

شعر المثقب العبدي

تحقيق : محمد حسن آل ياسين

التاريخ : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م

وديوان شعر المثقب العبدى

تحقيق : حسن كامل الصيرفي

نشر : معهد المخطوطات

التاريخ : ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

شعر عمر بن لجأ التيمي

تحقيق : يحيى الجبوري

التاريخ : ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م

الناشر : جامعة بغداد

شعر عمرو بن الأهتم

تحقيق : سعود محمود عبدالجبار

التاريخ : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الطبعة : الأولى

الناشر : مؤسسة الرسالة

شعر هدبة بن الخشرم

تحقيق : يحيى الجبوري

التاريخ : ١٩٧٦م

الناشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي

قصائد جاهلية نادرة

تحقيق : يحيى الجبوري

التاريخ : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة : الأولى

الناشر مؤسسة الرسالة

العقد الفريد

تأليف : أبي عمر بن أحمد بن عبد ربه الأندلس

تحقيق : أحمد أمين وآخرين

التاريخ : ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م

الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده

تأليف : أبي الحسن بن رشيق القيرواني

تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد

التاريخ : ١٩٧٢م

الطبعة الرابعة

الكامل
تأليف : أبي العباس محمد بن يزيد المبرد
تحقيق : أحمد محمد الدالي
التاريخ : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
الطبعة : الأولى
الناشر : مؤسسة الرسالة

كتاب الكرماء
تأليف : أبي هلال العسكري
تحقيق : محمود محمد شاكر
التاريخ : ١٣٥٣هـ

لسان العرب
تأليف العلامة : ابن منظور
إعداد وتصنيف : يوسف خياط
الناشر : دار لسان العرب - بيروت

المحبر
تأليف : محمد بن حبيب
تحقيق : ايلزه ليختن شتير
الناشر : دار الآفاق الجديدة

معجم الأمثال

تأليف : أحمد بن محمد النيسابوري الميداني

تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد

الناشر : دار المعارف بيروت

معجم الشعراء

تأليف : محمد بن عمران المرزباني

تحقيق : كرنكو

التاريخ : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة : الثانية

الناشر : مكتبة القدس

المحاسن والأضداد

تأليف : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق : عاصم عيتاني

التاريخ : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الطبعة : الأولى

محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف : مخمد الخضري

التاريخ : ١٩٦٩م

الناشر : المكتبة التجارية بمصر

المستظرف في كل فن مستطرف

تأليف : شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي

تحقيق : مفيد محمد قميحه

التاريخ : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الناشر : دار الكتب العلمية

مغازي الواقدي

تأليف : محمد بن عمر بن واقد

تحقيق : مارسدن جونس

الناشر : عالم الكتب، بيروت

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف : جواد علي

التاريخ : ١٩٨٠م

الطبعة : الثالثة

الناشر : دار العلم للملايين

المقتطف من أزهار الطرف

تأليف : علي بن سعيد الأندلسي

تحقيق : سيد حنفي حسنين

الناشر : الهيئة المصرية للكتاب

المنمق في أخبار قريش

تأليف : محمد بن حبيب البغدادي

تحقيق : خورشيد أحمد فاروق

التاريخ : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة : الأولى

نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب

تأليف : ابن سعيد الأندلسي

تحقيق : نصرت عبدالرحمن

التاريخ : ١٩٨٢م

الناشر : مكتبة الأقصى

النوادر في اللغة

تأليف : أبي زيد الأنصاري

تحقيق : محمد عبدالقادر أحمد

التاريخ : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

الطبعة : الأولى

الناشر : دار الشروق

نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري

فهرس الآيات

	الآية	الصفحة
سورة هـــود		
﴿قالوا سلامًا قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾	(٦٩)	١٢
﴿فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾	(٧٠)	١٢
﴿فـاتقـوا الله ولاتخـزون في ضـيـفي أليس منكم رجل رشيد﴾	(٧٨)	١١
﴿قالوا يالوط إنَّا رسل ربك﴾	(٨١)	١٢
سورة حجـــر		
﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إنا منكم وجلون﴾	(٥١)	١٢
﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾	(٦٨)	١٢
سورة الكهف		
﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجرا﴾	(٧٧)	١١
سورة الذاريات		
﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾	(٢٤)	١١

فهرس الأحاديث

الصفحة

من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليكرم ضيفة ١٥

ياسائب انظر إلى الأخلاق الجميلة التي كنت تفخر بهـــا في
الجاهلية فاصنعها في الإسلام أقري الضيف ١٥

من لم يكرم الضيف فليس من محمد ولا محمد منه ١٥

ليس لك من مـــــالك إلا مـــــا أكلت فـــــأفنيت
أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ١٦

حق الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فهو صدقة ١٦

كل بيت لايدخله الضيف لاتدخله الملائكه ١٨

شر الطعـام طعـام الوليـمـة يدعى إليـهـا من لايأتيـهـا
ويمنع عنها من يأتيها ١٩

أولم ولو بشاة ١٩

القرآن مأدبة الله ٢٠

يمنعني من ذلك قراهم الضيف وصلتهم الرحم ١٠١

فهرس الأمثال

الصفحة

أشهر من نار على علم ٢٤

كسرة بملح إلى أن يدرك الشواء ٣٠

لم يحرم من فصد له ٦٤

أبى الحقين العذرة ٦٦

أعن صبوح ترقق ٦٦

ألأم من راضع ٦٦

فهرس قوافي الشعر

المطلـــــــع	القافيـــــة	الصفحة
ونار	الرعاء	٢٦
وإن	الثراء	٣٣
إذا	السماء	١١٤
أضاحك	جديبُ	٤٦,٤٨
وأنت	لغوب	٨٨
ربيع	جنوب	٩٩
نعم	محروب	٩٩
وكم	خائب	١٠٣
وإني	واجب	١٠٧
ألا	الغريب	١٠
تحيز	صارب	١٠
رأيت	حربي	٧٧
وأقرضها	النيب	٢٨
ومستنبح	فجاوب	٣٤
وسار	مذهبا	٧٧
وإني	مرحبا	٩٠
وأسرع	فأجدبا	١٠٥
لجا الله	ذبًا	٩٧
فمت	صباها	٨٣
عطاء	القفرات	٧٩

المطلـــــــع	القافيـــــة	الصفحة
ومستنبح	نازح	٣٩
ومستنبح	جانح	٤٠
فنعم	النوابح	٤٤
يقربه	ضريح	٩٣
ألفيته	ممنوح	٩٣
ألا	سالح	١١٣
عجبت	الرحى	٥٧
بكى	الحشا	٥٨
من	صباحا	٩٨
المطمعين	كالأنافح	٩٠
من	يحمدوا	١٠٨
وإني	جامده	٣٦
وإني	حمد	٣٣
إذا	أوقدوا	٣٥
ومستنبح	وقودها	٤٣
تدل	موقدها	٤٤
وما	شهودها	٥٩
وجدت	الفئيد	٧٥
إذا	عودها	٧٦
وقائله	جودها	٧٢
إذا	جليدها	٨١
نصبنا	ركودها	٩١

المطلـــــــع	القافيـــــة	الصفحة
ولمّا	مفيدُها	٣٧
من	يحمدوا	١٠٨
يجود	الجود	٧
أيا ابنة	الورد	١٨، ٦١
هلم	المتردد	٢١
متى	موقد	٢٤
ونار	الصوارد	٣٣
الضيف	الأسود	١٠٧
طويل	ماجد	٧٨
حجروا	أكباد	٨٧
لنعم	الصوارد	٨٨
إذا	الجود	١١٥
لحا	عبدا	٥٩
وإني	لعبدا	٦٢
وقد	ركودا	٧٥
غلب	وسادها	٧
ومستنبح	أصور	٤٠
ومستنبح	ستورها	٤١
إذ ما	عقورها	٦٢
أخالد	ضجور	٨٩
بنو	تطير	٩٠
وقدوره	زواخر	٩١

المطلـــــــع	القافيـــــة	الصفحة
إذا	هدر	٩٥
ولليتامى	مخبور	٩٧
وللأضياف	سفر	٩٨
تخط	القفر	١٠٥
أوقد	صَرُّ	٢٥
وإني	ذخر	٧٤
عوى	الحقر	٤٣
بجرد	الأصاغر	٦٢
وعاذلة	مؤثر	٧٣
إذا	مقفر	٨٢
أضيافنا	الدهر	٨٨
المطعمو	الياسر	٨٧
طوال	يسري	٩٩
إذا	النواظر	٩١
له	العراعر	٩١
وابكي	الجار	٩٦
فمن	تقري	٩٨
مابين	اظفور	١١٠
فقلت	الخضر	١١٠
لنعم	الحضر	٣٥
فأبصر	النواظر	٣٥
آليت	متنور	٣٦

المطلـــــع	القافيـــة	الصفحة
ونارٍ	سفر	٣٧
ومستنبح	الكسر	٣٩
ونطعم	بالخطر	٧٦
يريح	مقتر	٨٠
سلي	مجزري	٨٠
طوال	يسري	٨٩
في	يدثر	٧
وإني	أتعذر	٧
وضيف	بحرا	١١٢
إذا ضل	حمدا	٢٥
إنَّا	الأوتارا	٧٦
مطاعيم	الفجر	٩٣
تجانف	النذر	١٠٧
نحن	ينتقر	٢٥
نعف	كنزا	٩٦
لعمر	لفارس	٦١
ومنزل	الأمالس	١٠٦
نبئت	المجلس	٢٥
مطاعين	القرس	٨٢
من يفعل	الناس	٨٧
إذا	نحيضها	٩٤
فلا	العلاط	٨٠

المطلـــــــع	القافيـــــة	الصفحة
الخالطو	اختبطوا	٨٣
وقد	مولع	٣٤
فراشى	مقنع	٤٩
وإني	ينزع	٤٩
فمن	فأسمعوا	٩٧
والماليء	يفاع	٩٤
له نار	القناعا	٢٤
له نار	اليفاعا	٣٢
ولم يكن	دراعا	٢٥
كسرنا	ضياعا	٦٦
أما	اليفاعا	٦٦
فتى	مترعا	٩٢
متى	ضائعا	٩٣
لعمري	جائعا	١١٧
ثم	سعه	٣٦
وإني	ترعف	٧٤
أردُّ	المنضيف	٨٣
وجدت	المتضيف	١٠
تضيفته	المتضيف	١٠
كم	يلتحف	٦٢
فلا	أعترف	٨٠
ومنزل	رساف	٩٧

المطلـــــع	القافيـــة	الصفحة
فقد	سلافا	٣٨
متى	متعطرف	١٠٠
ينفض	ولاحف	٦٢
لعمري	تحرق	٢٤
قدوري	أضيافه	٤٤
فلا	يرزق	٣٧
ومستنبح	طروق	٤١
اكرامنا	موثق	٨٢
أولئك	الدرادق	٨٢
ومستنبح	جزل	٢٨
وإني	المواكل	٢٨
أسأتم	المعجل	٣٠
وما	نزيل	٣٧
إذا	الغياطل	٨١
ويوم	المتحول	٨١
وأنت	زائل	٨٨
فنعم	بليل	٩٣
نعيت	الزلازل	٩٤
تجهز	الأنامل	١١٠
أتى	آمل	١١١
أتانا	قائل	١١١
نزلنا	نؤكل	١١٣

المطلـــــــع	القافيـــــة	الصفحة
أعاذل	شكل	٧٣
سأبغيك	فضائله	٧
إذا نزل	مراجله	١١
عكارف	العيالا	٥٣
	م	
إذا	اضطرامها	٣٥
ومستنبح	نجومها	٣٩
عاوٍ	النجم	٤٣
ومدفع	سوام	٧٤
وإنَّا	لغتامها	٧٥
وجزور	أجسامها	٧٤
فلا	عديم	٩٢
في دار	مكاريم	٧٦
واعلم	يلوم	١١٦
ألا	عاصم	١٠٥
سيروا	عاصم	١٠٦
وإني	اتهجما	٤٨
سلي	الثماما	٥٢
فجاء	أظلما	٥٤
وإنا	مسلما	٧٥
وطاوي	رسما	٥٥
ولاضيفنا	بمسلم	٧٦

المطلـــــــع	القافيـــــة	الصفحة
فلما	سناما	٧٦
فقام	حساما	٧٧
تكرُّ	معمما	٨٣
ليبك	أرملا	٩٢
إذا	تبسما	٩٩
تضيفت	احتكم	٨٧
يأتيْ	دوني	٤٥
فلوميني	مهينى	٧٢
تراهم	آذان	١٠٧
تكبون	واريا	٩٤

فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم بن هرمة، ٢٥، ٢٨

أبوالبختري وهب بن وهب القرشي، ٤٦

الأبيرد الرياحي، ٩٥

الأخطل، ٤٨، ٥٤، ٨٩، ٩٠

أرطاة بن سهية، ٢٨

الأشعر الرقبان الأسدي، ١٠٦

الأصمعي، ١١٧

الأعشى، ٢٤، ٨٠، ٨١، ٨٦

الأفوه الأودي، ٣٦

امرؤ القيس، ٣٥

أمية بن أبي الصلت، ٩٠

أوس بن حارثة، ١٠٨

أوس بن حجر، ٨٢

(ب)

بشار برد، ١١٥

بشر بن أبي خازم، ١٠٧، ١٠٨

(ج)

الجاحظ، ١٧، ٢٤

جران العود، ١٠٠

جرير، ٦٢، ٨١، ٩٩

جهز بن شرار، ٢٣

(ح)

حاجز بن عوف الأسدي، ٥٢

حاتم الطائي، ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٤٤، ٤٥، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٩١، ١٠٨

حسان بن ثابت، ٧٥، ٨١

الحسن بن عرفطه، ٩١، ١٠٧

الحطيئة، ٢٤، ٢٩، ٣٣، ٥٥، ٨٢، ٨٣، ٨٦، ١٠٩

حمد سميحه، ٢٣

حميد الأرقط، ١٠٩، ١١١

أبوحيان التوحيدي، ١٨

(خ)

الخنساء، ٩٦، ٩٧، ٩٨

الخزرج، ٢٢

(ذ)

أبوذؤيب الهذلي، ٩٣

ذي الرمة، ٧٣، ١٠٤

(ر)

ربيعة اليشكري، ٢١

ابن ربيعة بن الأسود، ٢١

راشد بن تنباك، ٢٣

الراعي النميري، ٢٩، ٣٧، ٣٩، ٥٧، ٥٨، ٦٢.

(ز)
زهير بن أبي سلمى، ٨٧، ٩٦
(س)
السائب، ١٥
أبواسحاق الحربي، ١٨
سراقة البارقي، ٧٧
سعد أبوربعه، ٢٣
السفاح بن بكير بن معدان البريوعي، ٩٤
سلامه بن جندل، ٧٦
السمؤل، ٣٧
(ش)
شبيب بن البرصاء، ٤٠، ٥٣، ٦٢
(ص)
صخر بن أعي الأسدي، ١١٢
الصمّة القشيري، ٥٩
(ط)
طه الحاجري، ١١٦
طفيل الغنوى، ٣٣، ٤٩
طلحة بن عبدالله بن عوف، ١١٤، ١١٥
(ع)
عاصم بن عمر بن الخطاب، ١٠٥
عامر بن الطفيل، ٧٦، ٨٣
ابن عباس، ١٥، ١٦
عتبة بن بجير الحارثي، ٣٩
عبد بني الحسحاس، ٣٨
عبدالرحمن بن عوف، ١٩
عبدالملك بن مروان، ٤٧
عبدالله بن رواحه، ٧٥
عبيد بن الأبرص، ٨٣
عبيد بن عبدالعزى السلاماني، ٧٣
العجلان، ٣٠
عروة بن الورد، ٤٩، ٨٠، ٨١
علي بن محمد العلوي، ٨٢، ٨٣
عمر بن الخطاب، ٩٥، ٩٦
عمر بن لجأ التيمي، ١٠٥
ابن عمر، ١٨
عمرو بن الأهتم، ٤١
عمرو بن أحمد الباهلي، ٥٣
عمرو بن عبدالله العجلي، ٣٥
عوف بن أبي عمرو بن عوف بن محلم، ٢٠
عويف القوافي، ١١٤
عنترة، ٧٨
(ف)
فضالة بن شريك، ١٠٥
(ق)
القطامي، ١٠، ٨٩، ١٠٣
قيس بن عاصم ١٨، ٦١
أبوقيس صيفي بن الأسلت، ٩٩

(ك)
أبا كرب تبع، ٢٢
كليب وائل، ٢٥
كثيرة عزة، ٨٨
(ل)
لبيد بن ربيعة العامري، ٧٤، ٩١، ٩٢
(م)
مالك، ١٨
مجاهد، ١٧
محارب، ١٠٤
محمد الخضري حسين، ١١٥
محمد، ١٥
محمد حسن، ١١٥
المثقب العبدي، ٣٤، ٧٧، ٧٨
مزرد بن ضرار، ٣٥، ٤٣، ١١٠، ١١٢
مسكين الدارمي، ٣٦، ٤٩، ٨١، ١١١، ١١٢
مصعب بن عمير الليثي، ١٠٦
مضرس بن ربعي، ٣٦
معاوية بن أبي سفيان، ٢١
معية بن الحمام، ٩٤
ابن مقبل، ٧٦
المقنع الكندي،
ملحان، ٩٩
المنخل، ٨٠
المنتجع بن نبهان، ١١٧
مهلهل بن ربيعة، ٢٥
(ن)
النابغة الجعدي، ٩١
النعمان بن المنذر، ١٠٨
(هـ)
هذلول بن كعب العنبري، ٦١
هدبة بن الخشرم، ٦٢، ٩٠
هرم بن سنان، ٩٦

فهرس الموضوعات

الصفحة

التمهيد ٥

مآدب العرب ١٩

حتمية الضيافة ٢٢

أ – نار القرى ٣١

ب– الاستنباح ٣٨

كيفية استقبال الضيف ٤٦

علاقة الكرم بظروف البيئة ٥١

خدمة الضيف ٦١

على من تجب الضيافة ٦٣

الفخر بإكرام الضيف ٦٩

المدح لمن يكرم الضيف ٨٦

هجاء الباخلين على الضيف ١٠٢

الخاتمة ١١٤

المصادر ١١٩

فهرس الآيات القرآنية ١٣٩

فهرس الأحاديث ١٤٠

فهرس الأمثال ١٤١

فهرس قوافي الشعر ١٤٢

فهرس الاعلام ١٥١

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٩٥٨٨
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 4279 – 9

٢ / ٩٣ / ٢٦٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

* ليس أظهر فى شعر العرب من الكرم والفخر بـه وتأكيـده في أقـوالهم وأفعالهم وفي مناقبهم ومحامد أجوادهم ، وهو – أي الكرم – اسم جامع لصفات الإنفاق المشروع والبذل للمال في سبل تعتز العرب بها، وتفاخر بفعلها، وتدّعي أن لها فيها القدح المعلى، فجاءت شعب الكرم عندهم متعددة ومتشابكة مع شؤون الحياة في الوقت نفسه. فإذا ذكر الكرم جاء معه إلى الخاطر ذكر الجود والسخاء والسماحة والفضل والضيافة، وكلها مما له علاقة بالعطاء وإذهـاب المال فيما يعود على المرء بالذكرالحسن والثناء الجميل. وحسب المرء أن يمس الظاهرة الاجتماعية والمسلمات المتفق عليها عند العرب ثم يدفـع في مـدارج الحديث إلى موضوعات أخرى قريبة الصلة ووثيقة السبب فى الفخر والإشادة بما يواجه أهل الصحراء من مشقة الحياة ومحاولـة التجـاوز الممكـن للظـرف القاسى ومقابلة الشدة بالإقدام عليهـا وتـوطين النفس لها حتى تتغلب الإرادة الصارمة على تلك القسوة ويخرج المرء مصقولاً بكرامة التحـدى والصمـود أمام العواصف العاتية حتى لاتقتلعه من جذور الوجود الـذاتي وهـو يتجـاوز التعثر الذي تضعه الطبيعة المتوحشة في سبيل السالكين.

نبذة عن المؤلف :

– مرزوق بن صنيتان بن مرزوق بن تنباك المسروحى الحربى.

– ولد فى بلاد مسـروح بالمدينـة المنورة عام ١٣٧٠هـ – ١٩٥٠م.

– أكمل تعليمـه الابتـدائى والثانـوى فى المدينة المنورة.

– التحق بجامعة الرياض قسم اللغة العربية وآدابها وتخرج فيها.

– عُين معيدًا فى الجامعة نفسها .

– حصل على درجة الدكتوراة من جامعة أدنبرة فى بريطانيا.

– عين أستاذا مساعدا فى جامعة الملك سعود (الرياض سابقا).

– حصل على درجة الأستاذية فى الجامعة نفسها.

مطابع دار المعارف – مصر

AL-OBEIKAN
8000918
SR- 25.00